العُقدُ النفسيّة التي تحكمُ الشرق الأوسط

محمد حسنين هيكل

ان المشاكل التى وقعت فى الشرق الاوسط ، الأحلاف والمشروعات والمناورات والمؤامرات ، تركت وراءها آثارا ورواسب تراكمت بعضها فوق بعض ، وتفاعلت مع العوامل البشرية فى أعماق نفوس الرجال ، الذين يصنعون الحوادث فى الشرق الاوسط ، أو يصنعونها للشرق الاوسط ، وكانت نتيجة هذا التفاعل ، ذلك الذى نراه ونشعر به فى المنطقة اليوم ٠

أو بعبارة أكثر تحديدا ٠

ان الشرق الأوسط الآن لا تحكمه المشاكل نفسها ، وانما تحكمه العقد التى خلفتها المشاكل ٠

ثمن النسخة ١٥ قرشاً

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

محمد حسنين هيكل

العُقد النفسية

التي تحكم الشرق الأوسط

https://twitter.com/kotobmamno3a تصوير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى – إبريل ١٩٥٨

تصوير http://facebook.com/kotobmamno3a

محمد حسنين هيكل

العُقد النفسيّة
التي تحكم الشّرق الأوسط

تمهيـــد

لست من المؤمنين بأن الأعمال الصحفية يمكن أن تحفظ بين دفتى كتاب !

لمـــاذا ؟

لأن الصحافة فى تصورى ، لا تقدم فى الناحية الاخبارية منها أعمالا خالدة .

ان الصحافة ، لكى تؤدى مهمتها على الوجه الأكمل ، لابد أن تقدم للناس ما يمكن أن يسمى صورا فوتوغرافية .

والفرق بين الصـــورة الفوتوغرافية السريعة ، وبين اللوحة الزيتية الخالدة ، فارق كبير .

ان المصور يعطى ما يراه أمامه .

أما الرسام فيعطى ما يجده داخل نفسه .

وهنا فارق كبير .

وصحيح أن الصورة الفوتوغرافية ليست مجرد لمسة على زر آلة التصوير ، صحيح أنها تحولت الى أن تصبح فنا ، ولكنها على أى حال لا تسجل الا ما تراه أمامها .

وفن المصور هو أن ينتظر الومضة المناسبة ، حين يجد أمامه الحركة المعبرة ، والملامح الناطقة ، ثم يلتقط صورته .

ولقد يمكن أن توصف الصورة الفوتوغرافية المعبرة ، بأنها عمل ماهر بارع ، ولكن ما أظن من السهل أن تسمى عملا خالدا .

أن الصورة الفوتوغرافية ، تجمع ، أو «تعبىء» ، أو «تجمد» ، داخل اطارها مجموعة من « الوقائع » .

أما اللوحة المرسومة ، فانها تجمع أو تعبىء أو تجمد داخل اطارها مجموعة من « المشاعر » .

والوقائع تتغير ، وتتبدل .

أما المشاعر فأبدية فى خلودها .

لذلك كنت دائما أعتقد أن العمل الصحفى مكانه «الصحيفة» وكان اعتقادى أيضا أن أى محاولة لوضع العمل الصحفى بين دفتى كتاب ، هى مخاطرة غير مأمونة العواقب ، لأنها محاولة تتجاوز حدودها المرسومة ، وتشرد خارج نطاقها .

* * *

أقول هذا التمهيد لأصل الى بضع نقاط أريد لها أن تستقر فوق حروفها .

أولها — أن هذه المجموعة من العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط اليوم ، ما زالت عملا « صحفيا » ، وانها اذا كانت قد تركت مكانها الأصلى على أعمدة الصحيفة ، و « تنكرت » وراء ملامح الكتاب — فانها لا تقصد بذلك أن تخدع أو تضلل ، أو تسرق من فوق رف الخلود — حيث لا مكان الا للأعمال الخلاقة الباقية — مكانا ليس لها .

ثانيا — أن هذه المجموعة — ليست الا صورة فوتوغرافية تمثل « الوقائع » فى زمان محدد ، ومكان محدد ، لا تتجاوزهما الى ما بعدهما .

ولكن الوقائع لا تقف ولا تنتهى .

ان الصورة الفوتوغرافية هى فى حقيقة أمرها « تجميد » لومضة من الزمان ولكن « الزمان » نفسه لا يجمد بعد الصورة .

انه يتحرك ، ويتغير ، ويتطور ، ويصعد الجبال ، ويخوض البحار ، ويدق طالما بقى فى الحياة نفسها نبض .

ولقد كتبت هذه المجموعة من العقد التى تحكم الشرق الأوسط فى خلال أيام شهر يناير سنة ١٩٥٨ .

وهكذا فان الحساب عنها لا يجب أن يخرج عن حدود هذه الفترة من « الزمان » .

ان الحساب لها أو عليها ، يجب أن يكون بمدى « تصويرها » للوقائع كما كانت تبدو على مسرح الحوادث فى هذه الأيام من شهر يناير سنة ١٩٥٨ .

وهذا الكتاب يظهر مع مطلع شهر ابريل من سنة ١٩٥٨ .

ولقد جرت منذ ذلك الوقت — كما يقولون — مياه كثيرة من تحت كوبرى قصر النيل .

جرت مياه كثيرة .

وتعاقبت أيام وساعات .

ومع الأيام والساعات تطورت الوقائع وتغيرت بعض ملامحها

الخارجية وزاد فى تفاصيلها اليوم ما لم يكن ظاهرا منذ أسابيع .

وسرعة الحوادث فى الشرق الأوسط — بالتحديد — فى هذه المرحلة من حياته ، سرعة لا تكاد تصدق .

واذا كانت سرعة الأقمار الصناعية ، التى ما زالت تدور فى مطافها حول الأرض حتى هذه الدقيقة ، موضع عجب الناس ، فان الذى يتأمل الأحداث فى الشرق الأوسط والسرعة التى تجرى بها ، سوف يكتشف ، أنها أدعى للعجب من سرعة طواف الأقمار الصناعية حول الأرض .

لهذا كان عبثا أن أحاول أن أضيف الى هذا الكتاب ما جد فى تطورات الحوادث منذ كتبت فصوله أول مرة حتى اللحظة التى تدور فيها آلات المطابع لتخرجه للناس على شكل كتاب .

كان ذلك عبثا .

كان معناه أن أحاول الجرى بسرعة القمر الصناعى أو أكثر .

ان الحوادث تتطور بسرعة مخيفة .

ماقد يبدو واضحا فى دقيقة بعينها ، يغيب وراء الضباب فى الدقيقة التى تليها .

والذى يبدو مؤكدا فى الصباح ، لا تلبث أن تنهشه الشكوك عند الظهر ، فاذا ما أقبل عليه الليل طواه الظلام .

لذلك فان محاولة اللحاق بالحوادث ، سباق لا ينتهى ، ولو قد حاولت الأقدام عليه ، ما ظهر هذا الكتاب .

واذن فان هذا الكتاب ، هو لقطة فوتوغرافية ، لصورة الشرق

الأوسط كما بدت لعينى فى الأسابيع الأولى لسنة ١٩٥٨ .

انه أيام من الزمان تجمدت داخل اطار ولكن .

دعونى أكرر ، قبل أن أترك لكم صفحات الكتاب .

ان الصورة الفوتوغرافية تجميد لومضة من الزمان ، ولكن الزمان لا يتجمد بعد هذه الومضة منه !

محمد حسنين هيكل

twitter.com/kotobmamno3a تصوير

بداية

صاحب الفكرة فى هذه المقالات هو جورج براون ، وزير الحربية البريطانية المقبل ، عندما يؤلف الوزارة حزب العمال ، ووزير الحربية البريطانى الحالى فى «وزارة الظل» Shadow Cabinet ذلك أن الحزب المعارض فى بريطانيا يؤلف وزارة غير رسمية ، يتولى كل وزير فيها دراسة مشاكل وزارته ، ومتابعتها ، وملاحقتها ، حتى اذا تغيرت الظروف يوما ، وانتقلت المعارضة من الظل الى مقاعد الحكم ، تمضى الأمور فى تلاحقها وتتابعها كان لم يحدث شىء بلا فجوة ولا وقفة ولا ارتباك !

قال لى جورج براون ، وكان فى القاهرة منذ أيام ، يدرس ويتأمل ويستقصى ... قال لى والسيارة تصعد بنا فى ظلام الليل على الطريق الملتوى كأنه ثعبان على الجبل ، وكنا نتجه الى ملهى صغير على قمة المقطم ، قصدناه بعد أن انتهى عمل الليل ، وبدأت المطابع تدور لتخرج للناس صحف الصبح وكنا نبحث عن مكان هادىء نأكل فيه لقمة ، ونقول بعدها كلمات لا عد لها ولا حصر ، قال لى جورج براون :

ـ كيف يمكن أن يخف هذا التوتر السائد الآن فى الشرق الأوسط ؟

وقلت لجورج براون ، بمزيج من نصف ابتسامة ، ونصف تنهيدة :

ـ سؤال سهل ، وليت الاجابة عليه كانت فى مثل سهولته ؟ !

ان الموقف فى الشرق الأوسط اليوم موقف غريب ، غامض ومثير .

لو شئنا أن نبحث عن المشاكل الظاهرة لما وجدناها تتكافأ مع التوتر الذى يسوده ، والا فما هى المشاكل الظـاهرة فى الشرق الأوسط اليوم .. باستثناء مشكلة اسرائيل بالطبع ؟ .

ماهى ؟

حلف بغداد مثلا ؟ وأين هو الآن حلف بغداد ؟

ان معركة حلف بغداد ، انتهت تماما ، وانتهى معها حلف بغداد.

وغدا أو بعد غد ينعقد فى أنقرة اجتماع لحلف بغداد ، وألح ساسة أنقرة على جون فوستر دالاس ، وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية ، أن يحضر اجتماع هذا الحلف بنفسه ، وفى اعتقاد ساسة أنقرة أن حضور دالاس قد يبعث الحياة فى العدم ويشيع الدفء فى برودة الموت ، والخطأ الجديد الذى يضيفه ساسة أنقرة الى سلسلة أخطاء قديمة ، أن حضور دالاس ، هو تأكيـد للعدم ، وضمان للموت ، هذا اذا كان العدم والموت فى حاجة الى تأكيد وضمان .

أى مشاكل أخرى بعد حلف بغداد ؟

مشروع ايزنهاور ؟ وأين هو الآن مشروع ايزنهاور ؟

لقد انتهى المشروع الأمريكى لسد الفراغ فى الشرق الأوسط،

كما انتهى المشروع الأمريكى لملء الفراغ فى فضاء الكون .

ضجة صاخبة ، ولكنها ساذجة ، ثم خيبة أمل لها أول وليس لها آخر !

وكما سقط القمر الصناعى الأمريكى الأول ، على الأرض ، كتلة محترقة من الرماد بعد دقيقة من تجربته ، سقط مشروع ايزنهاور — الصناعى ! — كتلة محترقة من الرماد أيضا ، وبعد التجربة الأولى كذلك .. تلك التجربة التى جرت فى الأردن عندما تحرك الأسطول الأمريكى السادس ليسقط وزارة فى عمان ، ويضع بدلها وزارة أخرى يرضى عنها بحارة الأسطول !

وأصبح مشروع ايزنهاور نكتة ، وبقايا ضجة ، مثل نكتة القمر الصناعى الأمريكى الأول ، وبقايا ضجته .

ماذا بقى اذن فى الشرق الأوسط ، بعد حلف بغداد ، وبعد مشروع ايزنهاور .

مشاكل كثيرة ... ربما ؟

ولكنها جميعا من نفس النوع ، فى ظاهرها على الأقل .

ماهى الناحية الأخرى ؟ الناحية غير الظاهرة ، هنا صميم المسألة !.

* * *

ان المشاكل التى وقعت ، الأحلاف والمشروعات والمناورات والمؤامرات ، تركت وراءها آثارا ورواسب تراكمت بعضها فوق بعض ، وتفاعلت مع العوامل البشرية فى أعماق نفوس الرجال ، الذين يصنعون الحوادث فى الشرق الأوسط ، أو يصنعونها للشرق.

الأوسط ، وكانت نتيجة هذا التفاعل ، ذلك الذى نراه ونشعر به فى المنطقة اليوم .

أو بعبارة أكثر تحديدا .

ان الشرق الأوسط الآن لا تحكمه المشاكل نفسها ، وانما تحكمه العقد التى خلفتها المشاكل .

أو أكثر مضيا مع التحديد :

ان الشرق الأوسط الآن لايحكمه حلف بغداد وانما تحكمه عقدة الفشل التى بقيت فى نفوس الذين أرادوا أن ينجح حلف بغداد .

والشرق الأوسط الآن لايحكمه مشروع ايزنهاور ، وانما تحكمه المرارة التى بقيت فى نفوس أصحاب المشروع ، مرارة من نوع عصبى قلق ، قريب الشبه الى حد كبير من ذلك النوع من العصبية القلقة . الذى طفح على تصرفات بعض المسئولين فى واشنطن بعد فشل القمر الصناعى الأمريكى الأول ، فى أعقاب نجاح قمرين صناعيين أطلقتهما روسيا .

صميم المشاكل فى الشرق الأوسط ، هو العقد النفسية .

وقلت لجورج براون :

— التوتر فى الشرق الأوسط ليس فى حاجة الى ساسة يحلون تعقيداته ، وانما هو فى حاجة الى أطباء نفسانيين يحللون عقده .

ليست تلك مجرد صورة كلامية .

انما هى صورة للواقع من غير رتوش !!

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

العقدة الأولى

لبنان

أو

عُقدة الذّنب

شيء ما ... ما هو ؟ ـ ماذا حدث فى مؤتمر الملوك ـ اين هو حق لبنان ؟ واين هو الذى ليس من حقه ؟ ـ فيلسوف لبنان الشهير ضد الفوغانية ـ قرروا شطب اسم جمال عبد الناصر ـ لا هو طلب ان يجيء ولا مصر رفضت ـ ستائر وظلام .

مشكلة محيرة !

أبدأ بمثال ..

مثال من الواقع لهذه العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط اليوم .

المثال هو : لبنان :

هل نريد مثالا من الواقع ؟

لبنـــان !

ولبنان الذى أعنيه هنا ، هو لبنان الحاكم وليس لبنان المحكوم.

ان هناك بين لبنـــان الحاكم وبين مصر « شىء ما » وأقول « شىء ما » لأننى من ناحية لا أستطيع أن أضع يدى على مشكلة ظاهرة أعزو اليها أسبابه ، ومن ناحية أخرى فأنا لا أريد أن أقرر — الآن — ما أعتقد أنه السبب الحقيقى .. على الأقل ليس فى هذا السطر بالذات .

فالمسألة فى ظاهرها أنه ليست هناك بين مصر ولبنان مشاكل .

لا خلاف على حدود ، لا صراع على غنيمة ، لا منافسة من أى شكل أو فى أى ميدان .

كذلك ليس بين مصر وبين لبنان — ما يحلو لبعض كتاب الغرب أن يقولوه فى بعض الأحيان عن مصر والعراق — منافسة على زعامة الدول العربية ، أو على زعامة الدولة الاسلامية .. هذا مع أن مصر تركت من زمان طويل ألقاب الزعامة فى نفس الوقت

الذى تركت فيه ألقاب الجلالة .. والسمو .. والسعادة الى آخر هذه الألقاب .

كذلك — ليس بين مصر ولبنان خلافات تقليدية ، بل ان الصداقة كانت دائما هى التقليد ، وكان لبنان يعتبر صداقته لمصر من عناصر قوته فى وسط المجموعة العربية .

كذلك أيضا — وأنا أقول ذلك كعربى قبل أن أقوله كمصرى — لم يحدث أن أساءت مصر يوما الى لبنان ، سواء فى هذا لبنان الحاكم أو لبنان المحكوم ، وربما حدث مرة أن نشرت الصحف بعض المقالات فى الهجوم على بعض حكام لبنان ، ولكن هذه المقالات كانت لا تكاد تنشر حتى تحاول الحكومة المصرية بكل الوسائل أن توقف الهجوم أو على الأقل تخفف من حدته ، هذا مع أن الهجوم على مصر أصبح السياسة الرسمية لبعض صحف لبنان ، ومن حسن الحظ أن هذا البعض من الصحف أقلية ، ولكن العجيب أنها الأقلية التى تعبر عن رأى لبنان الحاكم .

ولم يحدث فى تاريخ علاقات مصر بلبنان أن طلبت مصر من لبنان ما لا يطيق ، بل انها لم تطلب منه شيئا على الاطلاق ، وحتى يوم وقع العدوان على مصر ، واستدعى السيد كميل شمعون ، الى مقابلته سفير مصر فى لبنان وسأله :

— ما الذى تريد منى مصر أن أفعله .. اننى على استعداد لأن أفعل كل شىء .

كان رد سفير مصر هو :

— سيدى ، ان تعليمات حكومتى أن تترك لكم الخيار فيما ترون عمله ، فأنتم وحدكم أولى الناس بتقدير ظروفكم .

وحين قال السيد كميل شمعون ان من رأيه أن تقطع جميع الدول العربية علاقاتها ببريطانيا وفرنسا ، كان رد سفير مصر هو أن مصر لا رأى لها فى الموضوع وأن أى خطوة يخطوها لبنان هى أولا وأخيرا مسألة لبنانية .

وحين عقد بعد ذلك مؤتمر الملوك والرؤساء العرب فى بيروت فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٥٦ وكان السيد كميل شمعون بنفسه رأس المعارضة ضد قطع العلاقات بين الدول العربية جميعها وبين بريطانيا وفرنسا ، لم توجه مصر اليه كلمة عتاب .. ذلك أنها منذ الدقيقة الأولى اعتبرته وحده صاحب الحق فى القرار .

الى هذا الحد لم تكن هناك مشاكل .

والى هذا الحد لم تكن هناك أسباب للمشاكل ، أى .. الى هذا الحد كان حرص مصر على ألا تكون المشاكل ولا تكون أسبابها .

ومع ذلك فهناك اليوم هذا « الشىء ما » .

وهو « شىء ما » من طرف واحد يشعر به لبنان الحاكم ولا تشعر به مصر .

واليوم فى لبنان حملة شديدة تطالب بتحسين العلاقات مع مصر ، وانتهاج سياسة أكثر ودا وتقربا نحوها !

ولكن ما الذى أساء العلاقات حتى تكون الدعوة اليوم الى تحسينها .

وما الذى سبب الجفاء والبعد حتى تكون الدعوة اليوم الى الود والقرب ؟

ليست هناك أسباب ظاهرة .. وهناك فقط هذا « الشىء ما » !

ما هو ؟

ما طبيعته ؟

ما أصـــله ؟

رأيى أنا : عقدة الذنب !

* * *

لست خبيرا فى علم النفس ، ومعلوماتى عنه معلومات عامة ، وليس فيها تخصص أو تعمق .

و « عقدة الذنب » فيما أعرفه أن أشعر انى أخطأت فى حق أحد ، ثم لا تواتينى الشجاعة ، أو لا تواتينى الظروف ، على أن أواجهه بما فعلت وأستغفر عنه .

النتيجة داخل نفسى أن أتمادى مع الأخطاء .. أن أعاند .. أن أتمنى فى أعماقى أن يخطىء الرجل الآخر فى حقى ، حتى يتساوى الخطآن فاذا لم يخطىء فى الواقع رحت أتصور أنه أخطأ فى الوهم.. رحت أنسب اليه فى وهمى ما لم يفعله ، ولكن ذلك الوهم هو التبرير الوحيد فى نظرى لاحساسى بالخطأ .

تلك عقدة الذنب بفهمى البسيط لها .. فأين هى فى تصرفات لبنان الحاكم ؟

الرد بصراحة : فى كل تصرفات لبنان الحاكم !

لقد اندفع لبنان الحاكم فى تأييد السياسة الأمريكية .. والى هنا وهذا حقه المطلق لا يجادله فيه أحد .

ثم اندفع لبنان بعد مرحلة التأييد الى مرحلة المساهمة فى التنفيذ .

قبل مشروع ايزنهاور قبل أن يقبله الكونجرس الأمريكى .. والى هنا وهذا — أيضا — حقه المطلق لا يجادله فيه أحد .

وهاجمت مصر مشروع ايزنهاور واذا لبنان الحاكم لا يدافع عن مشروع ايزنهاور وانما يهاجم الذين يهاجمونه .. يهاجم مصر وغير مصر .

ويتهم آراءهم على حد تعبير وزير خارجيته الفيلسوف شارل مالك .

بأنها غوغائية .

والى هنا — حتى الى هنا — والخلاف فى الرأى الى درجة الهجوم حق لبنان المطلق لا يجادله فيه أحد .

ولكن السياسة الأمريكية بعد مشروع ايزنهاور وفى بداية عام ١٩٥٧ ، كانت متجهة فى الأصل الى عزل مصر وتركها وحدها داخل حدودها تلعق جراحها بعد العدوان ، والتعبير ليس من عندى ، وانما التعبير استعارة من لبنان .

.. واذا لبنان الحاكم على رأس سياسة العزل .

أصبحت بيروت قاعدة للمؤامرات ضد مصر ومركزا للمتآمرين عليها .

ولم تقل مصر كلمة واحدة .

وشنت على مصر حرب الأعصاب .. وحـرب الاقتصاد .. ومحاولات خفض قيمة الجنيه المصرى .. كل ذلك من بيروت .

ولم تقل مصر كلمة واحدة .

وتجمعت المخابرات البريطانيـة ، والمخـابرات الأمريكية ، والمخابرات الفرنسية ، تجمعت كلها ضد مصر وكان تجمعها فى بيروت .

ولم تقل مصر كلمة واحدة .

بل وخرج لبنان الحاكم يحاول — تنفيذا لخطة العزل — أن يفتت المعسكر الذى تقف فيه مصر ، ويقوم بما يشبه أعمـال السمسرة والوكالة بالعمولة لعمليات العزل .

ولم تقل مصر كلمة واحدة .

بل وجهت التهم ضد مصر — ربما احساسا بعقدة الذنب — وقيل ان مفرقعات مصرية وجدت فى بيروت وان الهدف منها حكام لبنان هذا بينما حكام لبنان يعرفون أن هذه المفرقعات المصرية ، دخلت لبنان بعلم حكامه ، ولغرض وطنى عربى يعـرفه هؤلاء الحكام ويقرونه .. لقد دخلت هذه المفرقعات قبل العدوان على مصر وكان المفروض أن تستعمل ضد اسرائيل .. اذا حدث أن هاجمت بريطانيا وفرنسا مصر بسبب تأميم قناة السويس ، وأرادت

اسرائيل أن تستغل الفرصة لحسابها ، هذا هو السر وهذه هى الحقيقة التى يستطيع أن يشهد على صحتها الجنرال فؤاد شهاب قائد جيش لبنان .

ولكن الذنوب كان يجب أن تنسب الى مصر فى الوهم ، ما دامت لم تتحقق فى العلم ..

ولم تقل مصر كلمة واحدة كذلك !

وقال الدكتور شارل مالك فى بيروت ، قالها أكثر من مرة ، وكان يقولها كل يوم فى النصف الأول من عام ١٩٥٧ :

— ان الولايات المتحدة قد قررت عزل مصر وبالتالى ليست هناك فائدة ترجى من محاولة اشراك مصر فى أى سياسة فى المنطقة .

وقال أيضا فى تلك الأيام :

— ان الولايات المتحدة قد شطبت اسم عبد الناصر من الشرق الأوسط بنص العبارة التى استعملها شارل مالك باللغة الانجليزية « They have written Nasser off »

والغريب ، أنه حتى فى هذا ، كان رأى مصر أن الدكتور شارل مالك معذور ..

لقد قالوا له هذا فى واشنطن ، وهو يصدق دائما ما يقال له فى واشنطن .

ثم لقد قالوا له وبدأوا بالفعل ينفذونه على مرأى منه ومسمع.

فهل كان فى تصوره أن تستطيع مصر أو أن يستطيع جمال

عبد الناصر أن يتحدى ارادة القدر ، التى هى ارادة أمريكا فى ايمان الدكتور شارل مالك .

لقد صدق أن مصر ستعزل .. وأن جمال عبد الناصر قد شطب من اللوح المحفوظ الأمريكى !

صدق .. ورتب سياسته على أنه صدق .. وحاول أن يقنع غيره أن يصدقوا !

وأكثر من التصديق السلبى ، حاول الرجل كسياسى داهية أن يشارك فى تحقيق التصديق ايجابيا .. واذا كان العزل والشطب مقررين فلماذا لا يساهم هو فى تحقيقهما .. خصوصا اذا كان من وراء ذلك ثمن .. عشرة ملايين من الدولارات معونة أمريكية للبنان !

هكذا وهكذا اندفع لبنان الحاكم طوال شهور سنة ١٩٥٧ فى تنفيذ سياسة عزل مصر .

وفى الأسابيع الأخيرة من سنة ١٩٥٧ ، كان واضحا أن مصر لم تعزل ، وانما عزل الذين تصوروا أن فى استطاعتهم عزلها !

حتى شارل مالك اكتشف بنفسه ، ومن غير أن يقولها له أحد، أن لعبة العزل قد انتهت ، ومضت الشهور بعد الشهور ، ومصر صامدة ، واقفة ، والدلائل كلها تقول انها تزداد كل يوم قوة .

وبدأت أصوات جديدة ترتفع فى لبنان .

أصوات تقول ان الدكتور شارل مالك وزير خارجية لبنان

طلب بنفسه أن يزور مصر لكى يصفى الجو بينه وبينها وأن مصر رفضت .

ولم يكن ذلك صحيحا .

فلا هو طلب أن يجىء ، ولا مصر رفضت .

والأمر فى حقيقته استمرار جديد للشعور بالذنب .. لعل ذنب مصر فى الوهم ، بأنها رفضت ، أن يبرر فى شعور وزير خارجية لبنان احساسه بعقدة الذنب !

ومع ذلك فما هو الجو الذى يريد الدكتور شارل مالك أن يصفيه فى مصر ؟

ثم فلنفرض أن أعظم عباقرة السياسة فى العالم شاء أن يتدخل بين مصر ولبنان لكى يصفى الجو بينهما .. فما هى المشاكل التى يتعين عليه أن يضعها على مائدة البحث .

كما قلت — فعلا — ليست هناك مشاكل .

انما هناك هذا « الشىء ما » ، فكيف يمكن أن يحل ؟

* * *

قلت ان المشاكل فى الشرق الأوسط لا تحتاج الى ساسة يحلونها ، وانما هى فى حاجة الى أطباء نفسانيين يحللونها .

وكيف يمكن أن يشفى لبنان الحاكم من عقدة الذنب ، فيصفو الجو بينه وبين مصر ، وفى مصر كثيرون يتمنون للجو أن يصفو وللريح أن تصبح رخاء .

كيف الطريق الى الشفاء ، وما هو العلاج ، وما هى وسائل تعاطيه ؟ وفى العلاج النفسى يستلقى المريض على مقعـد مريح ، وتنزل الستائر ليسود غرفة العلاج هدوء وظلام ، ثم يبدأ المريض يتكلم ويتكلم ، حتى تطفو العقد الدفينة وتظهر الرواسب الكامنة.

فهل نجىء بلبنان الحاكم الى غرفة ، وستائر وظلام ، ونتركه يستلقى على مقعد مريح ويتكلم ويتكلم حتى تطفو العقد وتظهر الرواسب أم ماذا ؟

مشكلة محيرة !! .

twitter.com/kotobmamno3a تصوير

العقدة الثانية

جون فوستر دالاس

أو

مجموعة عُقَد في رجُل

كهوف ومغارات وأشباح . عفاريت ـ حديث بالتليفون مع أيزنهاور ـ من جزيرة البط الى واشنطون ـ صور من بريونى ـ درس للمحايدين ـ الحفيد والجد ـ الورق والطبيعة ـ اخطاء الحساب والتاريخ والجغرافيا ـ قبل أن يولد جمال عبد الناصر ـ حافة الحرب .

العقدة النفسية الثانية ، فى سلسلة العقد التى تحكم الشرق الأوسط وتسيطر على مقدراته ، عقدة عويصة مضنية متعبة !

لست فقط لا أعرف كيف أحللها ، بل الواقع انى لا أعرف حتى كيف أعرضها !

حيرتى فيها ليست الى أين تتجه ، فانى أحس بالغريزة الغامضة باتجاهها ، وانما حيرتى الأصيلة فيها هى : من أين بدأت وكيف وصلت الى هذه الكهوف المظلمة ، والمغارات الرطبة التى تجرى فيها وتنط أشباح وعفاريت !

وأريد أن أجـــد لى رفاقا فى حيرتى ، لذلك سأطلب من كل من يجـــد فى نفسه قدرة على الفحص والـدرس أن يفحص ويدرس معى . وساقول له كل ما عندى ، من غير ترتيب ، فان الحوادث لم يكن فيها ترتيب ، وربما من غير منطق فان المنطق على أى حال لم يكن القاعدة التى دارت هذه الحوادث حولها .

سأقول اذن ما عندى ، كما يرد الى فكرى .. من فكرى الى الورق مباشرة !

عقدة اليوم« رجل » كانله وحده ، وأنا أصر على كلمة وحده، أكبر الأثر فى الحالة التى وصل اليها الشرق الأوسط اليوم .

ومدهش حقيقة أن يكون لرجل واحد ، فى هذا الزمان الذى نعيش فيه—زمان البرلمانات ، والحكومات الديمقراطية ، والقيادات الجماعية ، والمؤسسات ذات الفروع والغصون كأشجار البلوط الباسقة — أثر مفرد وحيد متميز على منطقة بأسرها كمنطقة الشرق الأوسـط .

ولكى أعطى الدليل على ما أقول لن ألتمس الوقائع فى تصرفاته من عندى و لامن ذاكرتى ، وانما سأعود الى كتاب عنه ، باسمه ، عنوانه : « جون فوستر دالاس » — كتبه صحفى أمريكى هو : « جون بيل » وهو صحفى يمثـل جريدته فى وزارة الخارجية الأمريكية ، وهو صديق دالاس الصدوق ، وأمينه وموضع سره ، لدرجة أنه بين الصحفيين الأمريكيين الذين يترددون على وزارة الخارجية من يقول ان الكتاب فى الواقع كان من امـلاء بطله « جون فوستر دالاس » ، وأن الرجل الذى وضع اسمه على الكتاب باعتباره مؤلفه ، لم يكن له فى الحقيقة غير فضل النقل .. نقل ما أملاه دالاس لكى يقرأه الناس ، وهذا الكلام أيضا ليس من عندى ولا من ذاكرتى وانما كبريات الصحف الأمريكية هى التى نشرته !

فى هذا الكتاب — مثلا — يقول جون بيل ، بلسان دالاس ،

أو لعل دالاس هو الذى يقول بقلم جون بيل ، ما ملخصه ومؤداه : ان جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية هو الذى اتخذ وحده قرار سحب العرض الأمريكى بالمساهمة فى تمويل السد العالى ، اتخذه وحده .

على غير رأى سفارته الرسمية فى القاهرة .

على غير رأى خبرائه فى الشرق الأوسط .

على غير استشارة مجلس الأمن القومى الأمريكى .

بل على غير تشاور ، مع دوايت ايزنهاور رئيس جمهورية الولايات المتحدة .

وكان كل ما حدث أن دالاس اتصل تليفونيا بايزنهاور فى ظهر يوم الخميس ١٨ يونيه سنة ١٩٥٦ ، وقال له انه قرر أن يسحب العرض الأمريكى المقدم الى مصر بالمساهمة فى مشروع السد العالى.

وكان ايزنهاور فى أجازة .. وكان فى أوجستا .

وحولت اليه المكالمة من واشنطون فى نادى الجولف فى أوجستا، واستدعوه من لعبة الجولف الى تليفون وزير خارجيته ، ووافق ايزنهاور على ما عرضه عليه وزير خارجيته ، ولم تستغرق المكالمة أكثر من عشر دقائق ، وشملت موضوعات أخرى ، بحيث يمكن أن يقال ان السؤال والجواب والتعليقات فى موضوع السد العالى لم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين فى محادثة الدقائق العشر !

وفى الساعة السادسة بعد ظهر يوم الخميس نفسه ، ١٨ يوليه سنة ١٩٥٦ ، سلم لنكولن هوايت ، المتحدث الرسمى باسم وزارة

الخارجية الأمريكية ، قرار دالاس الشهير الى الصحف ، وفى نفس الدقيقة كان دالاس يسلمه بنفسه للدكتور أحمد حسين سفير مصر فى واشنطن .

والأهوال التى ترتبت على قرار دالاس بسحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالى معروفة !

ومع ذلك كانت تلك هى الطريقة التى اتخذ بها دالاس هذا القرار :

وحده !

بمفرده !

على عكس رأى جميع مستشاريه !

* * *

ولكن لماذا اتخذ دالاس هذا القرار :

كان هناك تاريخ طويل ، ولكن كانت هناك حادثة أخيرة صغيرة، لعبت على وجه التحديد دور الشرارة فى اشعال النار فى البارود المختزن فى رأس دالاس .

ومرة ثانية أعود الى كتاب بيل عن لسان دالاس ، أو كتاب دالاس بقلم بيل :

كان دالاس فى أجازة قصيرة فى جزيرة صغيرة يملكها اسمها : « دك ايلاند » أى جزيرة البط .

وكان ذلك فى الأسبوع الثانى من شهر يوليه سنة ١٩٥٦ .

وركب دالاس قاربه فى نزهة حول الجزيرة ومعه مجموعة من الصحف وصلته صباح يومها من العاصمة .

ووقتها ، فى جزيرة أخرى لايملكها دالاس ، فى جزيرة جميلة تحتضنها وتخاصرها من كل ناحية أمواج الادرياتيكى الدافئة كان هناك مؤتمر منعقد .. مؤتمر بريونى الذى حضره تيتو ونهرو وجمال عبد الناصر .

ورأى دالاس ، فى الصحف التى وصلته حيث كان فى جزيرته ، صورا للمؤتمر الذى انعقد فى الجزيرة الأخرى فى بريونى والذى اشترك فيه زعماء الحياد فى العالم وتضايق دالاس .. وغضب .. وثار .

هكذا ، فى كتاب جون بيل .

ثم تسلسلت الأفكار فىَ رأسه ، وكتاب جون بيل مرة أخرى هو دليلى ومرشدى ، تسلسلت وتداعت على هذا النحو :

« ما هذه الصور ؟

« مؤتمر فى بريونى ! مؤتمر فىَ بريونى ؟ كيف ؟ أف من هؤلاء المحايدين ، لقد تجاوزوا الحدود ؟ من يظنون أنفسهم هؤلاء الثلاثة تيتو ونهرو وعبد الناصر ؟ ان الدعوة للحياد كلام فارغ ، انها دعوة لا تقبلها السياسة الأمريكية ولا ترضى بها ؟ ومع ذلك فهؤلاء الثلاثة وصلت بهم الجرأة الى حد عقد مؤتمر بينهم ؟ ولكن ذلك خطير ، انه سوف يقوى الأصوات التى تنادى بالحياد فى أفريقيا وآسيا ؟ ما هو العمل اذن ؟ لابد من رد يلغى آثار المؤتمر ، ويثبت فىَ أذهان

الذين تبهرهم دعوة الحياد ان الحياد مستحيل أو هو غالى الثمن الى درجة الاستحالة ، واذن لابد من درس قاس يعيد الصواب الى رؤوس هؤلاء المحايدين ويعيدهم الى الحد الذى يجب أن يلزموه، ولكن الى أين ، الى أى المحايدين يتجه الدرس » ؟

وعاد جون فوستر دالاس ، والتسلسل والتداعى فى أفكاره يصل الى هذا الحد ، يعيد التأمل فى صور مؤتمر بريونى ، وفى صورة منها على وجه التخصيص تمثل الثلاثة معا ، تيتو ونهرو وعبد الناصر ، ثم استقر بصره على « عبد الناصر » ، ثم توقف ببصره على وجه عبد الناصر لحظة وكل خلجة فى أعصابه يومها تصرخ ، اليه .. الى هذا الرجل بالذات يجب أن يتجه الدرس !

الى هذا « المشاغب » فى الشرق الأوسط هذا الذى يحاول أن يغير الأوضاع فى منطقة عاشت قرنين من الزمان على الأقل تحت نفوذ الغرب ورهن أوامره !

وطوى دالاس صحيفته ، وأدار دفة قاربه عائدا من عرض البحر الى جزيرة البط ، وكان ذلك آخر يوم فى أجازته ، فركب الطائرة عائدا الى واشنطن !

وصل دالاس الى واشنطن وأول شىء فى رأسه ذلك الدرس الذى قرر تلقينه للمحايدين ، وسأل دالاس عن آخر الأخبار فور وصوله فعلم أن عبد الناصر قد توجه الى القاهرة ومعه نهرو .

وقرر دالاس أن يتحرك بأقصى سرعة ، ليكون قراره ساخنا فى أعقاب المؤتمر ، وليصل قراره الى القاهرة ونهرو فى ضيافتها ،

ليكون معنى الدرس واضحا للمحايد الهندى .. هو الآخر !

وأمسك دالاس سماعة التليفون يتصل بايزنهاور فى أوجستا وكان ايزنهاور فى نادى الجولف ..

وكان الذى كان .

بهذه البساطة ؟

نعم بهذه البساطة !

يقول بيل عن لسان دالاس ، أو دالاس بقلم بيل فى كتابه ما نصه :

« وكان قرار سحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالى حركة محسوبة ، وكانت أهدافها ما يلى :

١ — أن تكون درسا للمحايدين .

٢ — أن تكون صفعة مدوية وعلنية — والعلنية هنا مقصودة باصرار — على وجه نظام الحكم القائم فى مصر ، حتى تضيع هيبته ويتلاشى اعتباره من المنطقة .

٣ — أن تكون ضربة اقتصادية توجه الى هذا النظام ، وتقرر مصيره المحتوم الذى لا مهرب منه ولا فكاك ! » .

كذلك حسب دالاس ، وليس المهم أن النتائج لم توافق حسابه، وانما المهم هنا هو كيف حسب الرجل حسبته ، ورتب على أساسها قراره ؟ هنا موضوع اليوم ..

أو هنا مكمن العقدة النفسية التى نحن اليوم بصددها !!

ولكن من هو الرجل ؟

ان معرفتنا بماضى أى رجل هى نصف معرفتنا بمستقبله !

كان جده وزيرا لخارجية أمريكا ، وكان أبوه قسيسا مبشرا ، وفى جو أسرة القسيس المبشر ، فى هذا الجو المتزمت ، كانت الأسرة تريد أن تجعل من الحفيد تكرارا للجد .. كانت تريده وزيرا لخارجية أمريكا ، وتقرر له منذ الرضاعة ما ينبغى أن يفعله وما لا ينبغى على هذا الأساس .

وكبر الطفل ، وصار شابا ، وبدأ يتطلع الى حلم أسرته ، حلم أن يصبح ، كما كان جده وزيرا لخارجية أمريكا .

وصارت المحاماة حرفته ، ولكن السياسة الدولية صارت هوايته ، ثم مع مضى الأيام انقلبت الأحوال ، وصارت الحرفة هواية والهواية حرفة ، أى صارت المحاماة مجرد وسيلة لكسب المال ، وصارت السياسة الدولية هى أمل الغد ومناه !

هذه هى القصة باختصار .

ولكن — وهنا تبدأ العقد العنيفة فى القصة — كيف يمكن لدالاس أن يمارس « سياسته الدولية » وهو بعيد عن السلطة وامكانياتها ؟

وهنا ينبغى أن نقرر أن دالاس لم يكن يريد أن يصبح أستاذا فى العلاقات الدولية ، وانما كان يريد أن يكون سياسيا ، بمعنى أنه لم يكن يريد أن يكون صاحب « نظريات » وانما كان يريد أن يكون صاحب « تحركات » سياسية .. ولكن كيف السبيل ..

الطريق الوحيد المفتوح هو طريق « الورق » :

أى أن يكتفى دالاس مما يريد بأن يكتبه على الورق ، يطبعه فى مذكرات ان أحب ، أو ينشره فى كتب اذا أراد ، وفى هذه الفترة كتب دالاس كتابه « حرب أو سلام » وفى هذه الفترة كتب دالاس أيضا مجموعة أخرى من الرسائل عن المشاكل الدولية.

وفى هذا الكتاب وهذه الرسائل تعرض دالاس لجميع المشاكل الدولية ، ورسم حلولا لها ، وكان ذلك كله على الورق .

أى انه عمل ما يجب أن يعمله وزير الخارجية ، من غير أن تتاح له فرص وزير الخارجية .. وأولها الاتصالات الشخصية والتقارير الدقيقة الكاملة .

وفى اعتقادى — اعتقادى الشخصى — أنه فى هذه الفترة تكونت عند دالاس عقدة من أخطر العقد .

عقدة أن يتصرف على « الورق » دون اعتبار « للطبيعة » .

عقدة أن يقرر وهو على مكتبه ما يتصور أنه « لازم » ثم يتعين على الدنيا كلها من بعده أن تلتزم به !

لقد عاش سنوات طويلة فى الخيال من غير تطبيق ، فلما واتته الفرصة للتطبيق ، كان الخيال أغلب على الواقع فى معظم تقديراته .

وهكذا بدت فى تصرفاته عقدة الجنوح الى ما يجب فى تقديره أن يكون ، بصرف النظر عما هو كائن بالفعل !

سياسته تجاه الصين مثلا :

هل يخطر على بال أحد أن تظل سياسة وزارة الخارجية

الأمريكية حتى اليوم تعتبر أن الماريشال شيانج كاى شيك أسير فورموزا العجوز ، هو الصين وأن ماوتسى تونج وشعب تعداده ٦٠٠ مليون نسمة ، ليسوا الصين بحال من الأحوال ، وانما هم حفنة من الخوارج الثوار ؟

شىء غير عملى ، ولا معقول ، ومع ذلك فتلك هى السياسة الرسمية لوزارة الخارجية الأمريكية ، وحين ارتفعت فى أمريكا أصوات تنتقد هذه السياسة لم يتورع دالاس عن أن يتهم أصحابها — أصحاب الأصوات الناقدة — بأنهم «خونة» للمصالح العليا للولايات المتحدة الأمريكية !

وهكذا فان الصين الحقيقية الآن ، بالنسبة لدالاس ، شىء غير موجود ، وغير قائم ..

وربما كان ذلك صحيحا على الورق ، على مذكرات الخارجية الأمريكية ، ولكنه بالقطع ، فى آسيا نفسها أول الحقائق ، وأضخم الحقائق .

وغير الصين ، سياسة دالاس تجاه مصر مثلا :

رأى دالاس أن يعزل مصر عن باقى الشرق الأوسط ، وأن يمارس فى هذا الشرق ، وفى الجزء العربى منه على وجه التخصيص، سياسة ليس لمصر فيها وزن أو اعتبار .

ورأى دالاس أن هذا ممكن على الورق .. وكل شىء على الورق يجوز .

ولكن الطبيعة لا تأتمر بأمر الورق .

ومجرد الحديث عن عزل مصر عن المنطقة العربية .. مجرد الحديث عن ذلك حتى على الورق ومن غير اعتبار للطبيعة ، بلاهة منقطعة النظير .

انه ليس خطأ فى التقدير ، بل هو خطأ فى كل البديهيات التى يتعلمها التلاميذ فى أول لقاء لهم مع العلم ..

انه خطأ فى الحساب ، خطأ فى التاريخ ، خطأ فى الجغرافيا .

خطأ فى الحساب : لأن تعداد المنطقة العربية هو ٤٠ مليون نسمة ، ومن هؤلاء الأربعين ، ٢٣ مليونا فى مصر وحدها .

فكيف يجوز حسابا أن تضع سياسة لمنطقة فيها ٤٠ مليونا ، ثم تقوم هذه السياسة — حتى اذا تصورنا أن كل من فى خارج مصر يقبلونها — على أساس استبعاد أكثر من نصف المنطقة ؟!

هذا خطأ الحساب .

ثم خطأ التاريخ : فانه حين كانت أمريكا قارة لا تسكنها الا الوحوش !. ربما حتى قبل أن تفد اليها قبائل الهنود الحمر من جزر الباسيفيك ، كانت مصر جزءا من المنطقة المحيطة بها ، تتفاعل معها وتتفاعل فيها ، فى تاريخ واحد ، ممتد ، متصل .

كان الفراعنة يحكمون هناك ، أو يجىء من هناك من يحكم هنا.

الأديان كلها تنبثق هناك ثم تمتد أمواجها فتغمر هنا .

الملوك والخلفاء والأمراء ضاعت بينهم الحدود وتاهت المعالم .

نفس الاقطاعيين المماليك هناك وهنا ، نفس الغزاة الأتراك هنا وهناك ، ثم فى خاتمة المطاف فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن

التاسع عشر ، نفس دول الاستعمار بأساليبها المختلفة من أول الجنرال نابليون بونابرت الذى اعتنق الاسلام أو هكذا قال (!) الى انتونى ايدن الذى اخترع حلف بغداد ليؤمن سلامة العرب ويصون استقلالهم ، أو هكذا يقول ، ويقول من بعده الجنرال نورى السعيد !

ثم بدأت فى المنطقة حركات الاستقلال ، وكانت فى الحقيقة حركة واحدة ، لم تنعزل ولم تنفصل .

هذا خطأ التاريخ .

ثم يبقى خطأ الجغرافيا : فان المنطقة وحدة جغرافية واحدة ، بجوها ، بأرضها ، بأصل شعوبها ، بمشاعرها ، بعاداتها .

وقبل أن يولد جمال عبد الناصر ، كان جمال الدين الأفغانى ينادى بالحرية لمنطقة بأسرها ، وبينما كان جمال عبد الناصر طفلا فى المهد ، كانت المنطقة كلها تردد شعر شوقى وتفكر مع لطفى السيد ، وتجوس بين الثقافات مع العقاد ، وتحلم مع توفيق الحكيم .

واليوم ، فى غير السياسة ، بل أبعد ما يمكن عن السياسة ، ما هى الأغنيات التى يمكن أن تتردد على شفاه الناس فى عمان برغم بوليس سمير الرفاعى ، وفى بغداد برغم أنف السيد فاضل الجمالى داعية حلف بغداد ولسانه الفصيح (!) وفى بيروت بالرغم من كل فلسفات الدكتور شارل مالك وزير خارجية لبنان .. ؟

الجواب هو : آهات من أم كلثوم ، ونغمات من عبد الوهاب ، وتنهدات وهمسات من عبد الحليم حافظ !

وأليست تلك كلها من عوامل الصلة فى الشعور وفى العاطفة ، هذا بعيد عن المصلحة ، وبعيد عن الأمن ، وبعيد عن مقتضيات السلامة ؟

وماذا يستطيع دالاس أن يفعل ، وماذا يستطيع أسطوله السادس الرابض فى البحر الأبيض أن يفعل ، ليعزل الآهات والنغمات والتنهدات والهمسات عن الناس فى منطقة بأسرها حين يخلون الى أنفسهم والى صفوهم !

ومع ذلك فان دالاس فكر فى عزل مصر .

كتب قراره على الورق .

ولكن .. ثم ماذا ؟

لا شىء ... الا خطأ ـ كما قلت ـ فى الحساب ، وخطأ فى التاريخ ، وخطأ فى الجغرافيا ... ثم عقدة فى السياسة !

عقدة فى السياسة ترتبت عليها وارتبطت بها عقد أخرى .

منها مثلا أن دالاس وهو يعتبر نفسه صاحب مدرسة فى « التحركات » السياسية يصر على أن يكون بنفسه مصدر كل قرار لأنه يعرف ما لا يعرفه ، بل ما لا يمكن أن يعرفه غيره ممن لم يكن جدهم وزيرا للخارجية .

ولكن اليوم أربع وعشرون ساعة فقط ، وساعات العمل منها ثمانى أو عشر ، والمشاكل التى تتعرض لها أمريكا لا أول لها ولا آخر ، وهكذا فان أى مشكلة لا تأخذ من وقت دالاس أكثر من عشر دقائق ، أو لا يجب أن تأخذ أكثر من ذلك الوقت .

وبأذنى سمعت فى واشنطن أحد معاونى دالاس يشكو من هذا الحال :

— الرجل مشغول ، ويريد أن يصدر بنفسه كل قرار ، ولا وقت لديه لسماع أى حيثيات ، لذلك تصدر قراراته دائما على معتقداته الراسخة القديمة .. وتكون كلها تكرارا لنفسها أو بعبارة أدق تكرارا لنفس الأخطاء ! .

ويرتبط بهذا أيضا أن دالاس لا يقرأ ما يرد الى مكتبه من تقارير ، فهو من ناحية لا يجد الوقت لقراءتها ومن ناحية أخرى فهو يعتقد أنه يعرف أكثر من الذين يكتبونها جميعا .

وحين علم دالاس أن مصر عقدت صفقة أسلحة مع الاتحاد السوفييتى ، كان دالاس فى نيويورك يحضر اجتماع الدورة العادية للأمم المتحدة .

وكاد دالاس ، ومعلوماتى من أعضاء فى الوفد الأمريكى للأمم المتحدة وقتها ، أن يفقد أعصابه واتصل بجورج ألن وكيل الوزارة فى واشنطن يقول بحدة :

— كيف لم تعرف سفارتنا فى القاهرة أن ذلك سوف يحدث ؟

وكان دالاس حتى وقتها لا يعرف أن سفارته كانت تعرف ، بل ان الحكومة المصرية لم تترك لها فرصة للشك ، فأخطرتها صراحة أنه اذا لم تحصل مصر على السلاح من أمريكا فسوف تحصل عليه من روسيا ، وكتبت السفارة هذا الكلام فى تقاريرها ووصلت التقارير الى مكتب دالاس ولكن دالاس لم يقرأ لأن وقته محدود

من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى يعتقد أن سفارته فى القاهرة ، وأى سفارة أخرى له فى غير القاهرة ، محدودة ، لا تعلم علمه ، ولا تحيط — لا تستطيع أن تحيط — بما يعرفه هو .

ويرتبط بهذا أيضا أن تفكير دالاس لا يتطور .

أى أن المعلومات القديمة ولو كانت خاطئة لا تخرج من رأسه .

والمعلومات الجديدة ، ولو كانت الحق بذاته ، لا تدخل الى هذا الرأس .

ويترتب على ذلك أحيانا قرارات خطيرة .. لا تلبث أن تتحول الى فضائح مدوية .

من ذلك مثلا قرار دالاس المشهور فى أزمة تأميم قناة السويس بمقاطعة القناة ، والدوران حول رأس الرجاء الصالح .

أصدر دالاس قراره ووضع موضع التنفيذ .

ثم سئل دالاس بعد أيام من القرار :

— ما هى الحكمة منه ؟

وكانت الحكمة فى رأى دالاس أن يعاقب مصر فيحرمها من دخل قناة السويس ؟

ولما قيل له :

— ولكن مصر تستطيع أن تحتمل هذه المقاطعة .. فانها لم تكن فى الأصل تعتمد على دخل قناة السويس .

سأل دالاس بدهشة :

— ألم تكن مصر تتقاضى عوائد على المرور فى القنـاة من الشركة .

ولما عرف دالاس أن مصر لم تكن تتقاضى الا مبلغا رمزيا .. كانت المفاجأة له ، فلو استمر شهرا يدور حول رأس الرجـاء الصالح لكان كمن يعاقب نفسه وحلفاءه ولا يعاقب مصر .. فان مصر ساعتها لا تكون قد خسرت شيئا بينما يكون هو وحلفاؤه يخسرون مائة مليون جنيه فى الشهر !!

ولكن دالاس لم يكن يعرف ..

ولقد يبدو ذلك غريبا .. ولكنه مع غرابته قطعـة من قلب الحقيقة وكبدها !

ثم عقدة أخرى مشهورة عن دالاس من أيامه الأولى .

العقدة التى أصبحت علما على سياسته .. سـياسة « حافة الحرب » كما اشتهرت فى المحافل الدولية .

كتب دالاس فى مجلة « لايف » ذات مرة مقـالا ، بيده ، بأصابعه ، بخطه ، قال فيه :

« ان أسلوبى فى الحركة هو أن أدفع الحوادث الى أزمة مستحكمة ، ثم أدفع الأزمة المستحكمة الى حافة الحرب ، وحين يقترب الجميع من الحافة المرعبة ، ويمسكون أنفاسهم هولا ورهبة ، ويبدأون على الرغم منهم فى التراجع حتى لا تكون النهاية ، أحصل أنا على ما أريد وأحقق أغراضى كاملة » .

ولقد هوجم دالاس فى عواصم الدنيا كلها على هذه السياسة ،

سياسة حافة الحرب "brink of war" بل واشتقت منها أوصاف أصبحت أعلاما فى المصطلحات السياسية كاصطلاح "brink manshid" أى السياسة الحمقاء المتهورة ، على عكس اصطلاح "statesmanship" أى السياسة العاقلة المسئولة ، ولكن ذلك كله على أى حال لم يمنع دالاس أن يمارس سياسة حافة الحرب مرة بعد مرة .

ولم يكن قرار سحب عرض المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى الا لعبة قمار ، من ألعاب « حافة الحرب » المشهورة .

لقد سحب دالاس مصر الى « الحافة » بقراره .

وكان على مصر وهى تقترب من الحافة المرعبة ، أن تمسك أنفاسها هولا ورهبة ، ثم تبدأ على الرغم منها فى التراجع حتى لا تكون النهاية .

ولكن مصر خيبت آمال دالاس ، لا هى تراجعت ، ولا هى وقعت فى الهاوية التى تطل عليها الحافة المرعبة .

وليس هذا هو المهم ، وانما المهم كيف نشأت هذه العقدة فى قلب دالاس ؟

كيف تعلم ابن القسيس المتزمت أن يلعب القمار على المكشوف بهذا الشكل ، وتكون أوراق اللعب ، مصائر شعوب ، وأقدار حرب أو سلم .

أرجح .. أن السبب هو التزمت نفسه .

ان التزمت لم يصنع الا كبتا ، ولما دارت الأيام ووجد المكبوت أن سلطانه ليس عليه قيد ، كان الافتعال واسعا ، وكان القمـار الجديد .. رد فعل طبيعيا للكبت القديم .

ذكرت حتى الآن عقدتين من العقد الكامنة فى قلب دالاس .

عقدة تصوره للأمور كما يريدها هو أن تكون وليس كما هى كائنة فعلا .. ومجموعة العقد الصغيرة المتصلة بها .

ثم عقدة القمار .. عقدة المخاطرة الى حد حافة الحـرب .. حافة الهاوية

بقيت عقدة ثالثة .

عقدة شخصية .

عقدة كان السبب فيها جمال عبد الناصر .

كان دالاس يعتقد أنه يستطيع أن يدخل التاريخ باعتباره أنجح وزير خارجية فى تاريخ أمريكا .. لو لم يحدث فى الشرق الأوسط ما حدث فعلا فى الشرق الأوسط .

والمسئولية فيما حدث فى الشرق الأوسط ، كلها ، يلقيها دالاس على ضابط شاب برز من المجهول فى مصر واعترض طريق الحوادث فى الشرق الأوسط .

هكذا مع عقدة الأمانى التى قطعت صلتها بالواقع .

ومع عقدة القمار .. والأوراق مصائر شعوب .

بدأت عقدة ثالثة .

ما هى هذه العقدة بالتحديد ... ما هى مظاهرها ، ما هى مضاعفاتها ؟

حكاية طويلة ، طويلة !

وليت كل علماء النفس فى مصر يجلسون معى .. عندما أبدأ فى كتابة تفاصيلها !

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

العقدة الثالثة

الولايات المتحدة الأمريكية

أو

مجموعة عقد فى سياسة دولة !

ألف ليلة فى الشرق الأوسط ـ تعلات السطح ومكنونات الأعماق ـ أساسان لكل سياسة أمريكية فى الشرق الأوسط ـ تليفون من تشرشل ـ صدفة ؟ ... قدر ؟ ... ربما ـ براڤو ! ـ من الذى خرج من الشرق الأوسط ؟ ـ اتفاق على القتل ـ فى مجلس الأمن القومى الأمريكى ـ ماذا أجدى علمه وذكاؤه !

لو لم يخرج من اعماق المجهول ، ضـــابط شاب ، اسمه جمال عبد الناصر ، ليبلور تيـارا تاريخيا قديما اسمه القومية العربية ، وليعطيه من ذات نفسه حافز الحياة ، وحافز النضال ...

لو لم يحدث ذلك ، كيف كانت الصورة فى الشرق الأوسط تبدو يومئذ ؟

أقرب الاجابات الى اللسان هى :

« ربما لم تكن المعركة العنيفة الناشبة الآن فى الشرق الأوســط ، قد اندلعت نيرانهـا ، و أغلب الظن أن الشرق الأوسط كان يومها يبدو مستسلما متراخيا ، تائها مع أحلام الدخان الأزرق لحشيش حلف بغداد ، ولعله كان وقتها قد أصبح على اسم القاهرة : ((حلف القاهرة)) .

((ولم تكن الضرورة ستدعو اطلاقا الى اختراع مشروع ايزنهاور ، لأن الفراغ الذى قام مشروع ايزنهاور ليملأه كان سيظل خافيا على العيون .

((وكان الشرق الأوسط سيبقى على هـذا النحو ، كمشاهد ألف ليلة ، بخورا وجـوارى ، وملوكا وقصورا ، وعبيـدا وخدما ، وعلى بابا والأربعين لصا ، ولا شيء بعد ذلك جديد تحت الشمس ، اللهم الا سائل سميك أسود ، اسمه البترول ، قد تفجر من بطن ذلك الشرق ، ولـكن من حسن الحظ أن قصة ألف ليلة لا تشعر بقيمته ولا تدرك معناه ، وأن الملك السعيد ... ذا العقل الرشيد ـ الى آخره ـ ما زال مستغرقا يستمع الى حكايات شهر زاد حتى الفجر ، ثم يدركه الصباح فينام مع شهر زاد حتى يقبل ليل الحكايات من جديد !)) .

ولكن أقرب الاجابات الى اللسان ، هى أبعدها عن العقل ، ذلك أن بقاء الشرق الأوسط على هذه الصورة الخرافية كان أمرا مستحيلا ، حتى ولو لم يخرج من أعماق المجهول ، ذلك الضابط الشاب .. جمال عبد الناصر ، ذلك أن القوة الحقيقية لهذا الذى خرج من المجهول ، وتصدى لسير الحوادث فى الشرق الأوسط ، لم تكن فى أنه صنع ، أو اخترع القومية العربية .. فان هذه القومية العربية أكبر عمرا منه بعشرات المرات ، وانما قوته الحقيقية — هذا الذى خرج من أعماق المجهول — هى أنه على حد تعبير أحد رؤساء الوزارات فى العراق : « ليس حدثا غير طبيعى فى الأمة العربية ، بل هو ابن حقيقى لظروف هذه الأمة وكفاحها وأمل مستقبلها » .

ولكن دالاس الذى :

تملكته عقدة القرارات على الورق ، وعلى الطبيعة أن تخضع وتطيع .

وتملكته عقدة القمار .. عقدة « حافة الهاوية » المشهورة ، وعلى الجميع أمام الخطر أن يتراجعوا أو تكون النهاية .

دالاس ، تلقف أقرب الاجابات الى اللسان ، أبعدها عن العقل ، واعتبرها حقيقته الكبرى ، لا تقبل نقاشا ، ولا تحتمل جدلا !

وعلى هذا الأساس تحمل جمال عبد الناصر وحده ، من غير شريك معه ، فى نظر دالاس ، كل حساب الفشل الذى لاقته السياسة الأمريكية خاصة ، والسياسة الغربية — على وجه العموم — فى الشرق الأوسط .

وكان الحساب باهظا .. غاليا .. كثير الأعباء والتكاليف !

ثم كانت النتيجة ما هو واضح الآن ، بالدليل تلو الدليل ، من أن دالاس لم يعد يتمنى من دنياه ، الا أن يغمض عينيه ثم يفتحهما ، واذا جمال عبد الناصر بعيد عن الشرق الأوسط ، أو الشرق الأوسط بعيد عن جمال عبد الناصر ، وفى تصور دالاس، أنه بعدها ، تحلو الدنيا وتصفو ويعود الشرق الى ألف ليلة ، والى شهر زاد ، وملكها السعيد ذى العقل الرشيد .. الى آخره !

وليس يعنينى فى هذا أن دالاس يظلم جمال عبد الناصر ، بل ان الواقع أن دالاس بهذا لا يظلم جمال عبد الناصر بقدر ما يظلم الأمة العربية نفسها ، ذلك أنه بهذا التفكير السطحى ، ينكر عليها تاريخها العريق ، الذى كانت فكرة القومية العربية والعمل من أجلها ، ذروته ، ذروة هذا التاريخ وتتويجه ، ذلك أن جمال عبد الناصر ليس أبا القومية العربية وانما هو ابنها ، وليس سبب القومية العربية ، وانما هو نتيجتها ، ولكن دالاس خلط بين الآباء والأبناء وخلط بين الأسباب والنتائج .

ومع ذلك .

فليس الذى يعنينى — كما قلت — هو الظلم ، ولا من هو

الظالم ، أو من هو المظلوم ، وانما الذى يعنينى انه هنا ، فى هذه النقطة بالذات ، فى فهم دالاس لجمال عبد الناصر ، تكمن عقدة من العقد المستعصية فى الشرق الأوسط .

ما حكايتها ، ما مظاهرها ، ما مضاعفاتها ؟

هذه هى القصة الطويلة ... الطويلة !

وبداية القصة سؤال :

— ما هى الأسباب التى صنعت هذا الجو العاصف بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية ؟ ما الذى دفع السحب الداكنة الى السماء ، وأشعل البرق ، وأطلق الرعد ؟

ان الجواب على هذا السؤال الآن ، وبعد كل ما جرى ، أشبه ما يكون بأبحاث علماء التاريخ الطبيعى ، هؤلاء الذين ينقبون بين طبقات الأرض ، عن الآثار الأولى للحياة ، عندما بدأت هذه الحياة تدب على الأرض فى أزمـان غابرة فى شكل قواقع وأصداف ، جرفتها السيول ، ثم ردمتها عوامل الطبيعة ، ثم سارت عليها الأيام بأقدامها كأنما تحاول عمدا أن تخفى بقاياها ، وتطمس آثارها !

الى هذا الحد صعوبة الجواب !

ان أحداث السنين القليلة التى مضت كان يمكن أن تمتد عبر قرون ، ومع ذلك فلنواجه الواقع كما وقع ، ولنحاول أن نكشف خلال طبقات الأرض الغائرة فى الماضى ، البقايا والآثار ، التى انهال عليها حطام ما توالى بعدها من تطورات وتغيرات .

فى البداية .. فى البداية الأولى ، منذ زمان فى مقياس الأيام يقدر بخمس سنين ، ويقدر فى مقياس الحوادث بمئاتها . لم تكن بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية مشاكل مباشرة ، أو بمعنى أدق مشاكل ظاهرة .

• لم تكن أمريكا مثلا تحتل مصر — كما كان حال بريطانيا، ولم يكن الدم سائلا بين البلدين ، يأمر بالقتل مرة من لندن ، ويصرخ فى طلب الثأر مرة من القاهرة !

• ولم تكن مصر تطالب أمريكا بشىء ، حتى طلبات المعونة الأمريكية التى قدمتها القاهرة الى واشنطن لم تكن « مطالبات » وانما كانت مجـرد « مقترحات » وكانت أمريكا تسـتطيع أن تقول لمصر .

« لا أستطيع .. لا أقدر » .

أو حتى بعبارة أكثر صراحة :

« لا أريد » .

ولم تكن مصر قادرة يومها — ولا هى قادرة الآن — على أن تلوى ذراع أمريكا لترغمها على أن تسلم لها بما تريد .

بل حتى محاولات شراء السلاح لم تكن « مطالبات » ، بل لعلها كانت الى « التوسلات » أقرب منها الى مجرد الطلبات ، وكانت أمريكا تستطيع أن تقول لمصر : « ليس لكم عندى سلاح، فأقفلوا هذا الموضوع وفضوا سيرته من أول يوم » ولم يكن

فى مقدور مصر يومئذ — كما ليس فى مقدورها الآن — الا أن تقفل الموضوع ، وتفض سيرته !

اذن ...

ما هى أسباب جو العاصفة — سحبه وبرقه ورعده — اذا نحن استبعدنا هذه الاحتمالات .

• اذا قال لى أحد أن السبب — مثلا — هو مقاومة مصر لحلف بغداد الذى ترعاه أمريكا وتتبناه لقلت له على الفور :

— خداع .. تلك تعلات السطح ولكنها ليست مكنون الأعماق .

لماذا ؟

بدليل بسيط .

بدليل أنه فى نفس العام الذى وصلت فيه مقاومة مصر لحلف بغداد الى ذروة حرارتها — فى سنة ١٩٥٥ — فى نفس هذا العام منحت أمريكا مصر ٤٠ مليون دولار — معونة اقتصادية .

وبدليل أن واشنطن حينما وجدت القاهرة تعارض حلف بغداد ، ترددت هى بنفسها عن أن تدخل البيت الذى كان دالاس أحد كبار مهندسيه وبنائيه ، ولم تضع قدمها حتى الآن بممر بابه الأمامى ، وانما هى لا تزال حتى هذه الدقيقة تتسلل اليه داخلة من النوافذ ، متسلقة على الجدران !.

• واذا قال لى احد ، أن السبب مثلا هو صفقة الأسلحة التى عقدتها مصر مع الاتحاد السوفييتى لقلت له على الفور :

— خداع .. تلك مرة ثانية تعلات السطح ، ولكنها ليست مكنون الأعماق .

لمـــاذا ؟

بدليل بسيط .

بدليل أنه بعد صفقة الأسلحة الروسية ، التى عقـــدت فى أغسطس سنة ١٩٥٦ ، بعدها بأربعة شهور أو خمسة ، تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية رسميا الى مصر بعرض المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى ، تقدمت أمريكا بهذا العرض الى مصر ، من غير طلب من مصر ، أى تقدمت به تطوعا وتبرعا !

• واذا قال لى أحد ان السبب — مثلا — هو تخوف أمريكا من وضع مصر وقوتها فى العالم العربى ، وظهور قوة شعبية عارمة فى البلاد العربية تتطلع الى الاشعاع الصادر من القاهرة لقلت له على الفور :

— خداع .. تلك مرة ثالثة تعلات السطح ، ولكنها ليست مكنون الأعماق .

لمـــاذا ؟

بدليل بسيط .

بدليل أنه فى بداية سنة ١٩٥٧ .. أكرر «فى بداية سنة ١٩٥٧» أى بعد العدوان على مصر بشهور قليلة ، عرضت أمريكا على مصر أن تستمر فى مساعداتها لها على أساس ٤٠ مليـــون دولار فى السنة — غير المساعدة فى تمويل السد العالى .

وعرضت أمريكا على مصر أن تعترف لها بزعامة العالم العربى.

وعرضت أمريكا على مصر أن تعترف لها بزعامة العالم الاسلامى .

وكانت مصر هى التى اعتذرت عن قبول هذه العروض ، وللاعتذار أسبابه وهى آتية بعد سطور ، والمهم فى هذا السطر هو عروض أمريكا ، وليس المهم فيه هو اعتذار مصر !

ولكن . . .

اذا كانت تلك كلها تعلات سطح .. فما هى على وجه التدقيق مكنونات الأعماق ؟ ..

من غير دوار ومن غير صداع أحدد على الفور سببين :

الأول — أن مصر رفضت أن تربط نفسها بأحلاف الغرب ومشروعاته العسكرية ، وبدلا من ذلك أعلنت حيادها بين الكتلتين المتصادمتين .

الثانى — أن مصر رفضت أن تعقد صلحا مع اسرائيل ، وبدلا من ذلك تمسكت بحق العرب فى وطنهم المخطوف المسروق :

سببان ، لا ثالث لهما ، وكل ما جرى بين مصر وأمريكا ، يصدر ، وينبع ، ويتفرع منهما .

المناقشات ، المشادات ، الأزمات ، العواصف ، الحرب ، حرب التجويع على أساس أن الظروف كانت تمنع حرب النار — كل هذه ، كلها .. صدرت ، ونبعت ، وتفرعت من هذين السببين .

على سبيل المثال — وأنا أحب دائما أن يكون لكل تقدير

شاهد من الواقع ودليل — قصة رغبة مصر فى الحصول على سلاح .

• فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ — بعد الثورة بشهور قليلة — تقدمت مصر الى أمريكا بأول طلب للحصول على سلاح ، ووعدت أمريكا ، وسافرت الى واشنطن بعثة مصرية لاستلام السلاح ، ولكن البعثة عادت من غير سلاح بعد أسابيع طويلة فى واشنطن من المماطلة .. سمعت البعثة سببين فى الاعتذار عن تقديم السلاح :

السبب الأول : أن ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية اتصل تليفونيا من ١٠ داوننج ستريت فى لندن ، بصديقه القديم دوايت ايزنهاور فى البيت الأبيض فى واشنطن ، وقال له :

« هل تريد أن تعطى المصريين سلاحا يقتلون به الجنود الانجليز فى منطقة قناة السويس ؟ »

هكذا تحت هذا الضغط رأى ايزنهاور أن العقل فى التأجيل .

السبب الثانى : أن المنظمات الصهيونية فى نيويورك ، وهى منظمات قوية يعمل لها ألف حساب وحساب ، لما سمعت أن أمريكا تفكر فى اعطاء سلاح لمصر ، باشرت ضغطها الكامل على وزارة الخارجية الامريكية ، ووجهة نظرها :

« هل تعطون سلاحا .. بهذه البساطة لقائد حارب ضدنا فى فلسطين ، هل تريدون أن يعود الى حربنا من جديد ؟ »

وكان معنى العذر الأول :

« عودوا الى بلادكم ، واتفقوا مع الانجليز ، وتعالوا بعدها تتحدث عن السلاح » .

وكان معنى العذر الثانى :

« عودوا الى بلادكم ، وابحثوا عن وسيلة تطمئن اسرائيل ، وتعالوا بعدها تتحدث عن السلاح » .

وكانت تلك التجربة .. تجربة أول طلب للسلاح من أمريكا ، هى اللمحة الأولى على نوايا وزارة الخارجية الأمريكية واتجاهاتها

• ثم جاءت تجربة الطلب الثانى .

فى أواخر سنة ١٩٥٤ وصلت المفاوضات الشاقة العنيفة بين مصر وبريطانيا الى اتفاق أو شبه اتفاق .

وعادت مصر الى أمريكا تطلب السلاح ، وأخرجت أمريكا من جيبها صورة ميثاق للأمن المتبادل ، وقرأت مصر نص الميثاق الذى قدم اليها لتوقعه قبل أن تحصل على السلاح ، واذا الميثاق كله قيود وسلاسل وبعثة عسكرية أمريكية يتعين على مصر أن تجعل لها الاشراف على جيشها .

وأبدت مصر دهشتها وقيل لها صراحة :

« هل يعقل أن تعطى أمريكا سلاحا لا يستخدم داخل اطار السلامة الأمريكية .. ؟ » .

« ثم من ناحية أخرى لابد أن توقعوا على انكم لاتستطيعون استخدام هذا السلاح الا باذن سابق منا .. »

« تلك على أى حال مصلحتكم أيضـا ، والا ، والا فان اسرائيل لن تقبل الأمر وستعتبره عملا عدائيا موجها لها على طول الخط ! »

ولما رفضت مصر أن تضع توقيعها على اتفاقية الأمن المتبادل مع أمريكا كان الكلام الذى قيل فى ختام المناقشات من قبيل فض المجالس :

« انتظروا قليلا حتى يتم تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط كله ، وساعتها تأخذون ما تريدون من السلاح فى نطاق اقليمى » .

وكانت تلك التجربة .. تجربة ثانى طلب للسلاح من أمريكا هى اللمحة الثانية على نوايا وزارة الخارجية الأمريكية واتجاهاتها.

• وجاءت تجربة الطلب الثالث :

تعلقت مصر كالغريق بالقشة الطافية على سـطح الموج ، تعلقت مصر بكلام فض المجالس وعادت تطلب السلاح لما تجدد الحديث عن الدفاع عن الشرق الأوسط فى بداية عام ١٩٥٥ قبل اعلان قيام حلف بغداد بأسابيع .. ربما بأيام !

قالت مصر انها مستعدة أن تكرس كل ما تقدر عليه من جهد لايجاد نظام فعال للدفاع عن الشرق الأوسط على شرطين :

شرط أن ينبعث النظام الجديد من المنطقة ذاتها ويعتمد على شعوبها ، ويكون حجر الأساس غير ميثاق الضمان الجماعى للدول العربيـة .

وشرط أن يتجه نظام الدفاع الجديد الى حمـاية الشرق

الأوسط من كل عدوان مهما كان مصدره ، ولا يكون مقصورا على احتمال العدوان من روسيا فقط .

ورفضت أمريكا نظرية مصر بشرطيها .

بالنسبة للشرط الأول كان اصرارها على أنه اذا ارتكز نظام الدفاع المقترح على الدول العربية كما تطلب مصر ، وتسلحت هذه الدول وتقوت ، فلن يكون هناك ضمان ، لأن تستدير هذه الدول العربية المسلحة يوما وتنقض على اسرائيل فتنهى وجودها .

وبالنسبة للشرط الثانى كان اصرارها على ضرورة أن تسلم مصر والدول العربية صراحة وفى غير مواربة بأن نظام الدفاع الجديد موجه ضد روسيا بالذات وضد روسيا وحدها .

ولم تكن نتيجة التجربة هذه المرة .. المرة الثالثة ، مجرد لمحة على نوايا وزارة الخارجية الأمريكية واتجاهاتها ، وانما كانت شعاعا مستمرا مسلطا من الضوء على مكنونات الأعماق .. على السببين .. نفس السببين فى كل مرة .

- ضرورة الانحياز للغرب .
- ضرورة الصلح مع اسرائيل .

تلك ثلاثة مشاهد متعاقبة ، فى قصة واحدة ، هى قصة رغبة مصر فى الحصول على السلاح .

ولكن أين جون فوستر دالاس .. وأين جمال عبد الناصر ؟

هما فى الصورة ، فى كل ضوء ، فى كل ظل ، فى كل حركة ، فى كل لمسة ، فى كل خلجة .

فى كل رأى .. وكل رأى مقابل .

فى كل فعل .. وكل رد فعل مضاد .

لقد بدآ معا . فى نفس الوقت .. بل ربما فى نفس اليوم .

فلقد أدلى جمال عبد الناصر بأول حديث سياسى دولى له ، الى الصحفية الأمريكية ذائعة الصيت مرجريت هيجنز .. تقريبا فى نفس اليوم الذى خطا فيه دالاس الى وزارة الخارجية الأمريكية لأول مرة .

صدفة قدر .. ربما ؟!

ترتيب قدر .. من يدرى ؟!

ولكن هكذا كان ..

فى نفس اليوم الذى برز فيه جمال عبد الناصر باعتباره القائد والموجه لثورة مصر .. جلس دالاس فى وزارة الخارجية الأمريكية يقود ، ويوجه دفة السفينة فى سياسة أمريكا الدولية .

وبينما كان جمال عبد الناصر يدير رأسه فى المنطقة من حوله مدفوعا الى ذلك بقوى تاريخية وعاطفية وعملية .

كان دالاس فى نفس الوقت يدير رأسه فى المنطقة ذاتها ، مدفوعا بقوى أخرى .

كان الشرق الأوسط يتمثل أمام ناظريه ، باعتباره الميدان الذى يمكن أن تجرى فيه وتتجلى « تحركاته » السياسية التى طال تفكيره فيها على « الورق » زمانا طويلا من عمره .

كان هدف الاستراتيجية الأمريكية يومها — وأستعمل الماضى

لأن الصواريخ عابرة القارات لابد أن تغير من أهداف هـذه الاستراتيجية الآن — يتجه الى تطويق الاتحاد السوفييتى من كل ناحية بالأحلاف ، واحاطة حدوده كلها بالقواعد .

كان هدف هذه الاستراتيجية أن تنشىء قوسا فولاذيا حول الاتحاد السوفييتى يرتكز من أحد طرفيه على الجزر البريطانية وشمالها وشرقها حتى القطب ، ثم يرتكز من الطرف الثانى على جزر اليابان ويمتد منها الى جزر الباسيفيك ثم الاسكا فى أقصى الطرف الغربى الشمالى للقارة الأمريكية .

وفى طرفى القوس الفولاذى كان الهدف يوشك أن يحقق غايتـه .

فى الغرب القصى كان حلف الأطلنطى قد نظم صفوفه وعبأ جيوشه ، وكان ايزنهاور — رئيس دالاس — بنفسه هو قائدها السابق قبل أن ينتخب رئيسا للجمهورية .

وفى الشرق القصى كانت القوات الأمريكية تحارب فعلا فى كوريا لتوقف تيار التقدم الشيوعى .

وبين الطرفين ، فى وسـط القوس ، فى القلب ، كان الشرق الأوسط هو المنطقة اللينة ، المفتوحة فى نطاق الفولاذ .

منطقة لا يملأها امتداد الأحلاف ، ولا تناثر القواعد .. كذلك بدأت نظرية دالاس فى ملء الفراغ فى الشرق الأوسط .

وتقدم دالاس ليباشر « تحركاته » .

أسفاه .. كما رسمها على الورق ، من غير اعتبار للطبيعة ..

وهكذا كانت أول رحلة قام بها دالاس ، بعد أن أصبح وزيرا للخارجية الأمريكية — وقبل أن تتعدد رحلاته الى أنحاء العالم فيما بعد — الى هنا الى الشرق الأوسط .

على « الورق » بدت المهمة سهلة .

مهمة فى الشرق .. الروحانية ، والأحلام والأوهام والجوارى والقصور ، وشهر زاد والملك السعيد .

هذا هو الجو ..

ثم من ناحية أخرى ، ضابط شاب ، يقود ثورة عسكرية فى مصر — هكذا تصور دالاس — وفى رأسه ربما فكرة عامة عن الاصلاح .

هذا هو البطل .

وكل شىء على الورق سهل ، وكل شىء على الورق يجوز .

وحان موعد اللقاء الأول بين دالاس ، وجمال عبد الناصر

ويقينى أن حساب دالاس كان قبل اللقاء على هذا النحو :

« ضابط شاب ، من السهل اذن أن يطوى .

« تكفى كلمة تشجيع ، ثم اثارة للغرور فيه .

« ثم مجاملات على طريقة الشرق العريق .

« ثم نحصل منه على ما نريد » .

وتحدث دالاس عن اعجابه بثورة مصر البيضـاء .. وكرر الاعجـاب .

وكانت البداية كما يجب أن تكون فى حساب دالاس .

ثم تحدث دالاس عن اهتمامه بالشرق الأوسط ، واهتمامه بمصر على رأس هذا الشرق الأوسط .

أول رحلة له كانت الى هذا الشرق .

أول بلد يزوره فى هذا الشرق هو القاهرة .

ليكن أول رجل يلتقى به هنا هو : جمال عبد الناصر .

برافو !

على الضابط الشاب بعدها أن يتمايل بخمر الغرور .. وكل شىء يسير كما قدر له دالاس أن يسير .

ثم دخل دالاس ليحصد ثمار ما زرع .

بدأ يتحدث عن مقتضيات الدفاع عن الشرق الأوسط فى نطاق نظام تكفل له أمريكا أسباب الحياة ، ثم بدأ يتحدث عن ضرورة ايجاد حل ينتهى أو يبتدىء بالصلح مع اسرائيل .. لا يهم أن يكون الصلح هو النهاية أو البداية والمهم أن يحدث والسلام !

وبدأ الضابط الشاب يتحدث .. ويتحدث .

تحدث فى مشكلة الدفاع .. وتحدث فى مشكلة اسرائيل .

وأنا واثق بعدها ، ومع كل يوم من الأيام دليل ، أن دالاس لم يسمع ما قاله جمال عبد الناصر .

انه لا يريد أن يسمع .. لا يهمه أن يسمع .

ولكنه تأدبا — على طريقة المجاملات فى الشرق العريق —

جلس ساكنا ساكتا وعقله يفكر فى مشكلة أخرى على أساس أن المشكلة التى يعيشها مشكلة تم فيها البت وانتهى !

وفرغ جمال عبد الناصر من حديثه .

وهز دالاس رأسه كأنه فهم .

وربما كان كل ما فهمه دالاس أن جمال عبد الناصر ليس مستعدا لما طلبه منه دالاس ، ولكن دالاس لم يستطع أن يصل الى عمق الرفض ، وربما اعتبره دلالا .. أو ترددا .. مجرد دلال ومجرد تردد .. أو — آه — تذكر دالاس : أن جمال عبد الناصر يتدلل ويتردد لأنه لا يستطيع أن يربط نفسه قبل أن تنتهى المفاوضات الدائرة بينه وبين الانجليز وقتها بقصد انهاء الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس .

وهكذا انتهت المقابلة الوحيدة اليتيمة بين الرجلين .

دخلها دالاس بأفكاره الثابتة الراسخة من أيام « الورق » ،

وخرج منها بنفس أفكاره الثابتة الراسخة من أيام «الورق»،

وتصور أنه فهم ..

وتجارب الأيام كلها فيما بعد تؤكد أنه — وانها لمأساة تدعو الى الحزن — لم يفهم شيئا على الاطلاق !

وهكذا كانت كل تصرفات جمال عبد الناصر بعدها ، مفاجآت لدالاس .. مفاجأة فى أعقاب مفاجأة !

مفاجأة يوم أصر جمال عبد الناصر — حتى بعد أن انتهت

مفاوضاته مع الانجليز باتفاقية الجلاء — على عدم الارتباط بأى مشروعات عسكرية .

مفاجأة يوم وقف جمال عبد الناصر فى باندونج ينادى بعدم الانحيـــاز .

مفاجأة يوم حصل جمال عبد الناصر على السلاح الذى يريده ليدافع عن بلده ووطنيته وقوميته ضد مطامع اسرائيل .

مفاجأة يوم رفض جمال عبد الناصر — بعد صفقة الأسلحة — ما تصور دالاس أن الضابط الشاب سيفرح به ويرحب ، وهو أن يعرض عليه دالاس أن يعترف له بالزعامة فى المنطقة العربية .. وبالزعامة فى المنطقة الاسلامية بعدها ، ولكن جمال عبد الناصر كان يمثل أكثر مما تصور دالاس ، ولم يكن معقولا أن يقبل من أمريكا زعامة لا تملكها لكى تستطيع بها أن تملكه ، فلم تكن أمريكا تملك الزعامة حتى تعطيها ، ولم يكن هو طالب زعامة حتى يمد يده لها .. ولكنها أفكار « الورق » .

ثم كانت مفاجأة المفاجآت لدالاس ، يوم ترك لغة الوعد الى لغة الوعيد ، وسحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالى ، ليمسح الأرض « بالضابط الشاب » الذى لم يستطع أن يحسن تقدير المغريات التى عرضها دالاس عليه — كانت مفاجأة المفاجآت له ، هو بطل « التحركات » أن يجد الرد جاهـــزا .. وأن يعلن جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس .

يومها كان دالاس هو صاحب التعبير المشهور الذى نشرته

مجلة نيوزويك الأمريكية فى أول عدد لها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٧ وهو :

« أنه يتعين الآن على الدول الغربية أن تخرج جمال عبد الناصر من الشرق الأوسط ، أو تخرج هى من هذا الشرق الأوسط » .

هكذا ..

هذا كل الذى استطاع أن يفهمه دالاس من كل ما حدث .

وفى هذه النتيجة الأخيرة على أى حال التقى دالاس مع أكبر حلفائه فى معسكر الغرب .. بريطانيا ، وفرنسا ، وكان لهما .. هما أيضا .. تاريخ طويل .. طويل مع نفس الشاب الذى برز من أعماق المجهول واعترض طريق الحوادث فى الشرق الأوسط .

ولكن وبالرغم من اللقاء على النتيجة ، اختلف دالاس مع ايدن ، ومولیه ، على أسلوب العمل .

وكان مكان الخلاف هو مؤتمر لندن الثلاثى الأول الذى عقد بعد تأميم شركة القناة .

كان الاتفاق كاملا على ضرورة « القتل » .

ولكن الخلاف كان شديدا على السلاح الذى يستعمل فى « القتل » .

كان ايدن ومولیه يريان استخدام الرصاص .

وكان دالاس يريد سلاحا يقتل من غير دوى الرصاص ولهيبه، وكان رأيه ، ولعلها مرة من المرات القلائل التى قرأ فيها ورقة

أو ورقتين قبل أن يحزم أمره — أن اللهب المنطلق من الرصاص المصوب الى صدر مصر قد يمس الجو المشحون بكهرباء التوتر الذى يحيط بالموقف الدولى من جميع نواحيه ، وقد يسبب انفجارا على نطاق واسع !

ثم كانت بعدها غلطة ايدن التى كانت ماضيه وحاضره ومستقبله ، مجده ، واسمه ، وصحته ، العدوان المسلح على مصر !

هنا بدأ الموقف يخضع لعوامل أخرى .

وذهب دالاس ليلة ، ليلة الهجوم على مصر ، الى الأمم المتحدة ليقود بنفسه معركة وقف القتال ..

هل تغيرت أهدافه ساعتها ؟

لا .

كانت أهدافه ما زالت نفس الأهداف ، ولكنه لم يكن فى موقفه يريد أن ينقذ مصر ، وانما كان يريد أن يسبق روسيا .

كان يريد أن يسبقها :

الى العمل أولا ..

والى ضمير الرأى العام العالمى ثانيا .

ولقد كنت — وما زلت — شديد العرفان لموقف أمريكا خلال العدوان على مصر ، ولكنى أحب أن أرد موقف أمريكا — الذى أفاد منه وطنى — الى أصوله الحقيقية وبواعثه الأصلية ، لا أخدع نفسى فيها بالغصب ، أو بالرضا .

ليلتها اختلف دالاس مع حلفائه وأصدقائه ، بل ووقف ضدهم.

هذا صحيح .

ولكن الخلاف على اتساع مداه ، كان لا يزال فى نفس الحدود خلافا على الأسلوب ، وليس على الهدف .

وكانت مسارعة دالاس بنفسه الى الأمم المتحدة رغبة فى مداواة خطأ الأسلوب ، والقفز منه الى فرصة جديدة لمتابعة نفس الهدف ، قبل أن تتعقد الأمور وتنقلب الدنيا رأسا على عقب !

وفى عدد مجلة نيوزويك الصادر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٥٦، وصف لجلسة وقعت فى الأيام الأولى من ذلك الشهر — نوفمبر سنة ١٩٥٦ — بينما كان العدوان على مصر ما زال مستمرا .

جلسة لمجلس الأمن القومى الأمريكى : فى هذه الجلسة قال دالاس :

« ان روسيا مستعدة للمجازفة الآن فى حرب ذرية » .

ثم قال دالاس ما نصه :

"The drive for volunteers in Russia and China is much more than a propaganda move !"

أى « أن حركة الاقبال على التطوع للقتال فى مصر ، فى روسيا والصين ، أكثر من مجرد حركة دعاية ! » .

وقال نائبه فى وزارة الخارجية هربرت هوفر ما نصه :

« ان جمال عبد الناصر حسب موقفه العالمى ببراعة ولعب أوراقه السياسية بحذر ، وقد وضع الغرب أمام خيارين :

اما أن يتوقف العدوان ضد مصر ، واما حرب ذرية فى العالم .

وقال الأميرال رادفورد رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات الأمريكية :

« ان هناك طائرات روسية جاهزة بطياريها فى مطارات ألبانيا ».

وختم دالاس بنفسه تقدير الموقف فى هذه الجلسة بقوله :

«ان الأيام السبعة القادمة ستكون أخطر أيام فى تاريخ العالم».

وفى هذه الفترة كان هناك ديبلوماسى أمريكى آخر ، أشد قلقا ، وأكثر تخوفا من كل الجالسين فى واشنطن .

ذلك الديبلوماسى الأمريكى هو : شارلس بوهلن سفير أمريكا يومئذ فى موسكو .

ولما كنت فى موسكو منذ شهرين سمعت بأذنى سفير الباكستان فى موسكو ، يروى كيف قال شارلس بوهلن أيام العدوان على مصر مرة :

— رباه .. ليت أصدقاءنا يفرغون بسرعة من العمل الذى تهوروا فيه قبل أن يفرغ الروس بسرعة من أحداث المجر ، ثم تكون كارثة من غير حدود !

وكانت أحداث المجر ، هى لعبة الحظ التى غامر الانجليز فى حرب السويس اعتمادا عليها .

وكانت الخطة أن تضرب مصر بقسوة فتستسلم ، أو تسحق فى أيام ، ولكن مصر لم تستسلم .. وكذلك كانت كقطعة صلبة من حجر الصوان غير قابلة للسحق بسهولة .

وبينما وصلت ايجابية الشعوب العربية تضامنا مع مصر الى ذروتها .

ووصلت غضبة الرأى العام العالمى انتصارا لحقها الى ذروة مماثلة .

استطاعت روسيا بسرعة أن تفرغ من أحداث المجر وتستعيد قدرتها على الحركة فى الشرق الأوسط ، وتوجه انذار الصواريخ المعروف .

وتوقف القتال .

ولكن دالاس كان لا يزال واقفا على المسرح باعتباره من أبطال الموقف .. بصرف النظر عن نوايا القلوب .

وأمكن حصر النار فى بور سعيد ، وكان يمكن أن تمتد ألسنتها فتندلع عبر قارات ومحيطات .

وهدأ كل شىء وسكن .

ولكن دالاس كان ما زال يواصل « تحركاته » مدفوعا بعدة عوامل .

بينها أن يواصل تحقيق الهدف .. الأصيل الذى اختلف مع حلفائه فى أسلوب تنفيذه .

وبينها أن يقوم بمناورة رائعة باوعة يشهد معها هؤلاء الحلفاء كيف يستطيع أن يتصرف فى رشاقة الحاوى وينشل جمال عبد الناصر من قلب الشرق الأوسط من غير أن يشعر أحد .

وبينها أيضا اعتقاده أن الوقت ملائم فى جو الاحترام الأدبى

الذى استطاعت أمريكا أن تحققه بموقفها على مسرح الأمم المتحدة .. بصرف النظر عن نوايا القلوب .

وبينها أخيرا اعتقاد دالاس أن الجو فى البلاد العربية .. خصوصا فى الأوساط الحاكمة ، يفتح أمامه الثغرات التى يتسلل منها .

لقد عثر على اكتشاف ليحقق ما يتمنى ..

ولكن ماذا كانت أمنيته ! .. قلت انها كانت :

« أن يفتح عينيه فيجد جمال عبد الناصر بعيدا عن الشرق الأوسط .. أو يجد الشرق الأوسط بعيدا عن جمال عبد الناصر ».

ان الانجليز والفرنسيين أفسدوا ابعاد جمال عبد الناصر عن الشرق الأوسط .. بجهلهم .. وغبائهم .

أما هو دالاس فسوف يحقق — بعلمه وذكائه ! — الجزء الثانى ، المساوى فى النتيجة للجزء الأول وهو « أن يجد الشرق الأوسط بعيدا عن جمال عبد الناصر » .

من هنا بدأت حكاية عزل مصر !

بدأت أول عام ١٩٥٧ .

وانتهت بنهاية عام ١٩٥٧ .

ماذا كانت نتيجتها ؟

لم تعزل مصر .. !

ونتائج اخرى غير ذلك ؟

ـ جمعية ينبغى أن تؤلف من بعض حكام الشرق الأوسط اسمها :

جمعية ضحايا دالاس .. جمعية ضحايا العقد النفسية لدالاس !

العقدة الرابعة

عزل مصر

أو

جمعية ضحايا دالاس فى الشرق الأوسط

صورة يرسمها دالاس ـ القنبلة وجهاز التفجير والابرة ـ دلهى والقاهرة والفرق بينهما ـ قنابل هيدروجينية فى الهواء ـ ضرورة استراتيجية ـ خطة من ثلاث شعب ـ ماذا حدث فى الدمام ـ تحالف ملوك البترول ـ هل انتهت مصر ؟ ـ على المكشوف ـ حفلات السفارة الأمريكية ـ حامية رومانية فى الشرق الأوسط ـ حكاية !!

https://twitter.com/kotobmamno3a تصوير

فى بداية سنة ١٩٥٧ ، كانت على لسان دالاس دائما ، صورة رمزية يرسم بها الحالة فى الشرق الأوسط ، كما يتمثلها فكره .

وكان دالاس يروى صورته الرمزية ، لكل زوار مكتبه الفخم فى الدور السادس من مبنى وزارة الخارجية الأمريكية الذى يغطى الرخام الأحمر القانى جميع جدرانه .

كان دالاس يصور الموقف فى الشرق الأوسط كما يلى : « ان عوامل الانفجار فى الشرق الأوسط موجودة » .

ثم يستطرد دالاس ، والسياق يكاد يكون نفس سياقه ، والألفاظ ألفاظه :

« ان شحنة البارود ما زالت هناك فى المنطقة الخطرة فى الشرق الأوسط وجهاز التفجير ما زال سليما فى قلبها يدق .

« وقد نسمع الدوى الرهيب فى أية ثانية ، ونجد كل شىء يطير فى الهواء الى قرب السماء » .

ثم يترك دالاس ، ابتسامة يريدها أن تبدو ذكية ، وينظر الى محدثه وقد أمال وجهه الى أسفل ، ورفع عينيه فوق حافة نظارته ، يتطلع الى ذلك الذى يصغى اليه ، ثم يمضى فى حديثه :

« ما الذى يفعله الخبراء ، خبراء المفرقعات ، حين يريد الواحد منهم أن يرفع قنبلة خطرة لم تنفجر ، ولكن خطر انفجارها معلق على الرؤوس فى أية ثانية .

ان أول خطوة ينصح بها خبراء المفرقعات هى :

احاطة القنبلة بنطاق عازل ، يبعد الناس عن نطاق انفجارها وبعد أول خطوة ، يتقدم خبير المفرقعات من القنبلة الخطيرة على أطراف أصابعه .. بهدوء .. بحذر .. بخفة متناهية » .

ويكون صوت دالاس ، وهو يصل من صورته الى هذا الحد، قد خفت حتى استحال همسا كانما ينقل الى سامعه جو الرهبة والقلق .

ولكن صوته يرتفع فجأة :

— « والآن الى أى جزء فى القنبلة يجب أن يتجه اهتمام خبير المفرقعات ؟

الى شحنة البارود ؟

لا .. طبعا .

ان شحنة البارود ، ولو أنها هى فعلا المادة المتفجرة ، الا انها فى حد ذاتها ليست لها أية قيمة .

انما الخطر الحقيقى هو جهاز التفجير .

أو بالتحديد الابرة الصغيرة .. ابرة الانفجار فى هذا الجهاز .

ومن غير جهاز التفجير ، تصبح شحنة البارود ، مجرد مسحوق كيماوى ، لا يهدد ولا يثير .

ومن غير الابرة الصغيرة .. يصبح جهاز التفجير قطعة من الحديد ، لا تخيف ولا تضر .

ومن غير جهاز التفجير ، تصبح الشحنة الرهيبة ، جسدا خامدا لا حياة فيه .

أى من غير الابرة تصبح القنبلة الرهيبة لعبة أطفال .. يستطيع أى صبى صغير أن يدحرجها أمامه على الأرض، ويركض وراءها !!

ثم يطرح دالاس جانبا أسلوب الرمز ، ويسمى الأشياء بأسمائها ويضع النقط فوق الحروف :

— كذلك يجب أن نصنع فى الشرق الأوسط .

ان الوطنية القابلة للاشتعال ، التى يسمونها القومية العربية ، هى شحنة البارود ومصر هى جهاز التفجير .

وجمال عبد الناصر هو الابرة فى جهاز التفجير .

دور واحد فى القصة الرمزية ، لا يسميه دالاس باسمه ، ولا يضع النقطة فيه على الحرف ، ذلك هو دور خبير المفرقعات .

ولكن أى مستمع لدالاس ، لا يساوره الشك من طريقة حديثه ، فى أن دالاس يعتبر نفسه ، وحده ، دون سواه ، خبير المفرقعات .. الحصيف ، الحذر ، الخفيف ..

خفيف اليد خفة متناهية ، القادر على أن يرفع الابرة الصغيرة،

فى جهاز التفجير ، من قلب شحنة البارود ، من غير هزة ، من غير لمسة ، من غير حس !

كذلك كان دالاس يفكر فى بداية سنة ١٩٥٧ أى بعد العدوان، وبعد موقفه الظاهر من العدوان .

ولكن الحق الذى يجب أن يقال ان أسس الصورة ، أو معالمها الرئيسية ، كانت فى خيال دالاس من قبل العدوان بشهور طويلة .

كانت فى رأسه منذ تأكد دالاس ، على سبيل القطع واليقين ، أن فكرة عدم الانحياز ، الحياد الايجابى ، قد تأكدت فى رأس جمال عبد الناصر ، على سبيل القطع واليقين !

كان آخر ما يتسامح فيه دالاس هو حديث الحياد وعدم الانحياز فى الشرق الأوسط ، ولقد كان دالاس مستعدا لأن يسبل غفرانه على أى صوت يرتفع بالحياد ، الا أن يرتفع هذا الصوت فى الشرق الأوسط .

أو على سبيل زيادة الايضاح :

كان دالاس مثلا مستعدا لأن يغفر للهند حيادها ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يغفر لمصر حيادها .

فان حياد الهند كان يأخذ — فى رأيه — من روسيا .

أما حياد مصر فقد يأخذ — فى رأيه — من الغرب .. منه هو .

لماذا ؟! .

لأن الأفكار لا تعرف الحدود ، لأن الأفكار كالانفلونزا

الآسيوية هذه الأيام ، سريعة الانتشار ، طائرة مع الهواء ، تدخل الى القلوب والى الصدور مع الأنفاس التى تتردد .

وليس المهم — على هذا القياس — هو تأثير دعوة الحياد فى الهند ومصر ذاتهما ، وانما المهم ، هو تأثير هذه الدعوة على ما حول الهند ، وما حول مصر .

ولنفرض أن دعوة الحياد من دلهى انتشرت الى ما حولها .. فماذا حول دلهى فى آسيا ؟

حول دلهى ، حول الهند ، بحر من الأفكار الحمراء !

دولة حمراء كبرى فى الصين ، حيث ستمائة مليون نسمة ، ودول حمراء قوية فى شمال كوريا وشمال فيتنام ، ثم أحزاب حمراء نشيطة ومؤثرة ، فى كل عاصمة من عواصم آسيا . .

فلو أن الدعوة للحياد ، انبعثت من دلهى ، واستطاعت أن تشد اليها آمال وأنظار باقى العواصم فى آسيا ، لكان معنى ذلك أن آسيا تخطو بعيدا عن تأثير روسيا !

هذا فى الهند .

ولنفرض الآن أن دعوة الحياد من القاهرة انتشرت الى ما حولها ، فماذا حول القاهرة فى الشرق الأوسط ؟

حول القاهرة ، حول مصر ، بحر من نفوذ الغرب ، سيطر واستحكم منذ عشرات السنين ، بل مئاتها .

حاميات الغرب العسكرية ما زالت فى شبه الجزيرة ترفع العلم البريطانى صراحة ، واتفاقيات الأحلاف ، حلف بغداد مثلا ، تربط

بعض الدول فى الشرق الأوسط الى مصـــالح الغرب ، وفلك سياسته ، والذى لا يربط حلف بغداد ، يمسك بتلابيبه مشروع ايزنهاور ، والذى تمرد على حلف بغداد ، وتهرب من مشروع ايزنهاور ، لم يلبث أن تعثر فى اتفاقية قاعدة ، تقوم منها كل يوم بالطائرات دوريات القنابل الهيدروجينية الحية متحفزة متأهبة .

فلو أن الدعوة للحياد ، انبعثت من القاهرة ، واستطاعت أن تشد اليها آمال وأنظار باقى العواصم فى الشرق الأوسط ، لكان معنى ذلك أن الشرق الأوسط يخطو بعيدا عن تأثير الغرب .

هكذا باختصار ووضوح .

وباختصار ووضوح كانت — كما قلت — كراهية دالاس لعدم الانحياز فى الشرق الأوسط .

والحق — الذى يجب أن يقال انصافا لدالاس — أنه قضى وقتا طويلا يحاول ، قبل أن يتأكد — على سبيل القطع واليقين — أن لا فائدة ترجى من جمال عبد الناصر .. وأن الأمل فى اقناعه بالانحياز الى سياسة الغرب ومصالحه كأمل ابليس فى الجنة !

حاول دالاس كثيرا .

حاول بالمجاملة ، وبالكلام الحلو ، وبروحانية الشرق العريق كما تتصورها العقلية الأمريكية أحيانا حين ترسم الشرق فى خيالها وكأنه خان الخليلى فى القاهرة ، وسوق الحميدية فى دمشق ، وقوافل الجمال على دروب الصحراء فى الحجاز .

وبوعود المساعدة ٤٠ مليون دولار فى السنة ، منحها مرة ،

لكى تذوق مصر حلاوتها ، ثم منعها ، حتى يستبد الشوق بمصر ، وتجرى تلهث كالكلب الجائع يطارد عظمة !

ومضى الى حد أن جاء بالمنى — أو ما يتصور أنه المنى — لمصر على طبق من ذهب .. عرض بزعامة العالم العربى والعالم الاسلامى ، حتى تتوه مصر وراء سراب الخيلاء فى الصحراء الواسعة !

وحاول دالاس بطريقة أخرى .

بالوعد بعد الوعيد .

رفض تسليح مصر ، وسلح اسرائيل فسمح لفرنسا بأن تسلمها دفعات بعد دفعات من طائرات « ميستير ٤ » النفاثة ، وسحب العرض الأمريكى بالمساهمة فى تمويل السد العالى .

وأثبتت مصر ايجابية فعالة فى المقاومة .

لما رفض تسليحها .. اشترت السلاح من روسيا .

لما سلح اسرائيل .. اعترفت بالصين الشعبية حتى تقلب له سياسته فى آسيا رأسا على عقب .

لما سحب عرض السد العالى .. أممت شركة قناة السويس .

أى أن مصر لم تستجب لما طلبه منها دالاس ؛ وكذلك لم تخضع لما حاول أن يفرضه عليها ؟ .

هل كان ذلك كله من جانبها عن كراهية لدالاس ، أو عن كراهية للغرب ؟ .

الجواب .. بالقطع لا ، ولا ثانية ، ولا ثالثة .

ان مصر اختارت عدم الانحياز عن ايمان ، ايمان لا يستند الى صوفية محجبة بالأسرار ، ولا يرتكز على فدائيـة تطلب الاستشهاد والسلام ! أبدا .

وانما كان ايمان مصر يرتكز على اعتبارات عملية تصـور مصالحها الخاصة ، وتصون ، ما تعتقد فى صميم قلبها ، أنه مصالح الآخرين .

ان الحروب فى عصرنا الحديث .. فى زماننا .. فى عهد القنابل الهيدروجينية ، والقذائف الموجهة ، والصواريخ عابرة القارات ، قد اختلفت عما كانت فى أى عصر من عصور التاريخ التى مضت .

أسلحة الحرب اليوم .. معدات هائلة لا يصل اليها الا القوى القـادر .

وما دمنا — مصر أقصد — لا نملك أسلحة هذه الحروب ، فما هو دورنا فيها ؟

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى نحن — مصر أقصد — لا نضمن أسباب الحرب ، فلماذا نقترب من ميدانها ؟

لا نملك سلاح الحرب ، ولا نملك الأسباب التى تدفعنا الى أن نحارب ..

فلماذا ننحاز الى فريق من الفريقين .. لدى كل منهما السلاح .. ولدى كل منهما الأسباب .

كذلك اختارت مصر أن لاتنحاز ، باعتبار أن عدم الانحياز ، هو خير دفاع عن أرضها ، عن أبنائها ، ضد خطر التدمير ، وضد الاشعاعات ، وضد الكوارث والنكبات التى لا حدود لها .

ان أى ثمن كان يمكن أن تحصل عليه مصر من انحيازها ، لا يساوى ، ولا يمكن أن يساوى ليلة واحدة تبيتها مصر تحت تهديد القنابل ، والقذائف ، والصواريخ .

ان ميزانية التسليح فى أمريكا هذا العام ٤٥ بليون دولار أو ٤٥٫٨٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يدفعها الشعب الأمريكى — وأمره لله — حتى يقلل — يقلل فقط — من احتمالات هجوم مفاجىء ذات ليلة عليه بالقنابل والقذائف والصواريخ .

ولم يكن على مصر — ولا كان فى طاقتها أن تدفع مثل هذا المبلغ لتؤمن نفسها .

وكان هناك طريق ، أقصر ، وأسهل : عدم الانحياز .

وماذا يهم فى هذا السبيل أن تضحى مصر بأربعين مليون دولار تستطيع أمريكا أن تعينها بها كل عام اذا هى انحازت الى جوارها.

ماذا تساوى ٤٠ مليونا من الدولارات كل سنة .

تضحية تهون .. ومع ذلك فان مصر بايجابيتها الفعالة ، استطاعت أن تمنح نفسها — لا منة من أحد ولا صدقة — مائة وخمسين مليونا من الدولارات كل سنة ، هى دخل قناة السويس.

هذا هو اعتبار السلامة الذاتية .

اعتبار مراعاة مصر لمصالحها الخاصة .

بقى الاعتبار العام .. اعتبار أن مصر تؤمن بعدم الانحياز كوسيلة لتخفيف التوتر الدولى .. والعمل من أجل السلام ، والا فما الذى يحدث للدنيا لو انقسمت شعوبها الى معسكرين .. كل منهما فى مواجهة الآخر .. بقنابله .. بقذائفه .. بصواريخه ؟!

كذلك كان ايمان مصر بعدم الانحياز .

وكان أعز أمانى مصر — وأظنه ما زال من أعز أمانيها — أن يفهم دالاس — حتى دالاس — حيادها على حقيقته ويحترمه ويقدر دوافعه .

ولكن دالاس ، لم يفهم ، ولم يحترم ، ولم يقدر .

أو — ولأكن منصفا للرجل — ربما فهم دالاس ، واحترم ، وقدر ، حياد مصر ، ولكنه وجد فى ذلك الحياد خطرا على مصالح بلاده ، أو ما يتصور انها مصالح بلاده .

من هنا كان القرار ..

قرار أن يزول هذا الحياد وينتهى ، وتندثر معالمه ، وتعفى الحوادث على آثاره !

كان ذلك من قبل العدوان .

واستمر ذلك بعد العدوان .

ولم يكن العدوان فى حقيقة أمره الا حادثا اعترض طريق سياسته .

قبل العدوان كان يحاول أن يحقق أهداف العدوان ولكن بوسائل أخرى .

وبعد العدوان مضى دالاس يحاول أن يحقق نفس الأهداف — التى فشل العدوان فيها — ولكن بوسائل أخرى .

ومنذ اليوم الأول لأزمة السويس ، منذ اجتماع لندن الأول ، كانت وجهة نظر دالاس :

« ان استعمال القوة مع مصر خطر بسبب الظروف الدولية . وسلاح الحصار الاقتصادى ، هو خير الأسلحة وأضمنها » .

أى أن دالاس كان يرى أن ضرب مصر خطأ وأن الأصوب خنقهـا .

وكان يرى كذلك أن استعمال الرصاص تهور ، وأن التجويع حتى الموت طريقة عاقلة رزينة .

ولم تكن تلك هى كل خطة دالاس وانما كانت الخطة ذات ثلاث شعب هى :

١ — الحصار الاقتصادى — كما قلت —

٢ — العزل فى المنطقة .

٣ — الغـزو من الداخـل — أى بتعبير أكثر صراحة : المؤامرات فى الداخل .

والعجيب أنه حتى ايدن أبدى له منذ اللحظة الأولى شكوكه فى أن خطته يمكن أن تؤدى الى اخضاع مصر .

ومع ذلك فقد بدأ دالاس ينفذ خطته .

• جمد أرصدة الدولارات المصرية فى أمريكا .

• أوقف كل عقود مصر الخاصة مع الشركات الأمريكية .

• دفع الى الأسواق بكميات من مخزون القطن الأمريكى طويل التيلة حتى يسد الفرص أمام قطن مصر .. بل مضى يتعقب عملاء القطن المصرى ، كانت الهند أحد هؤلاء العمـلاء فمنحها دالاس عقدا لشراء قطن أمريكى ، بثمن أرخص ، وتقسيط على أجل طويل .. كذلك فعل مع ايطاليا وأسبانيا .

والأعجب أنه فى نفس الوقت الذى كان دالاس يلعن فيه بلسانه العدوان الثلاثى على مصر ، رفض أن يبيع لمصر قمحـا تصنعه خبزا وهو يعرف يقينا أنه بسبب ظروف الحرب ، ليس لدى مصر الا احتياطى من الحبوب يكفيها خمسة عشر يوما .

قلت « الأعجب » .. والحقيقة أن لا عجب ، فقد كانت تلك خطة دالاس وكان ذلك هو اتجاهها .

وقبل العدوان على مصر أيضا ، كان دالاس قد بدأ يمارس سياسة عزل مصر عن المنطقة .

ولقد بدأت الدسائس المسمومة حتى قبل تأميم شركة قناة السويس .

ولكن بعد التأميم بدأت الدسائس المسمومة تخرج من السر الى العلن ، وتخرج من سراديب القصور .. الى صفحات الجرائد

والذى يعود الى ظروف تلك الأيام ويحاول تحليل الخطوط العريضة فى اتجاهات الدعاية الأمريكية كما كانت تنشرها صحف الولايات المتحدة الوثيقة الاتصال بالخارجية الأمريكية ، وكذلك

محطات الاذاعة الأمريكية ، ومحطة صوت أمريكا على رأسها ـ يجد خطين عريضين .

الخط العريض الأول فيهما هو التشكيك فى مصر .

نموذج منه مثلا هو استغلال الصحف الأمريكية لاستقبال رئيس جمهورية مصر فى الدمام عندما طار ليحضر اجتماعا ثلاثيا مع الملك سعود والرئيس القوتلى .

أصرت الصحف الأمريكية على أن تبرز أن الهتاف كان كله لجمال عبد الناصر ، وأن التصفيق كان من أجله ، وأن اتجاه الجماهير كان اليه .

ثم لم تنس الصحف الأمريكية فى حملة الدسائس المسمومة أن تقول .

« ان الملك سعود ، ضايقه أن يشعر أن زائرا له قد حظى من اهتمام شعبه بأكثر مما يحظى هو .. وان جلالته رأى فيما حدث فى الدمام بادرة خطر » .

والخط العريض الثانى هو الدعوة الى تجمع أصحاب المصالح الحقيقية ضد سياسة « المغامرة » وكان ذلك هو الوصف الذى تطلقه صحف دالاس على الذين لا يستجيبون لسياسته حين يعدهم ، ولا يرضخون لها حين يتوعدهم .

هنا استغلت قصة اجتماع الملك فيصل ملك العراق والملك سعود ملك السعودية .. ومن هنا خرج وصف « تحالف ملوك البترول » أو « تساند الملوك فى مواجهة الجمهوريات الجديدة »!

خطان عريضان وبينهما خطوط صغيرة كثيرة ، لا تتورع عن فكر ، ولا تتوقف تحت رادع مبدأ .

فى تلك الفترة زورت على اذاعة صوت العرب أحاديث لم تصدر عن صوت العرب .

وفى تلك الفترة زيفت على مصلحة الاستعلامات المصرية وثيقة تبدو مصر فيها وكأنها تطالب بتأميم البترول العربى كله .

حتى أمير قطر ، حملوا اليه خريطة قيل له ان مصر طبعتها ، وفى الخريطة تبدو منطقة الشرق الأوسط ، والنسر شعار الثورة المصرية يبدو محلقا فوقها وأحد مخالبه منقض فى الخريطة — على قطر .

مطامع مصر الاستعمارية فى قطر ..

كذلك قيل لأمير قطر ! !

كان ذلك كله قبل العدوان .

وجاء العدوان .

وكانت وقفة شعوب العرب الرائعة مع مصر .

ولكن دالاس لم يجد فى الحدث الجديد عقبة تهز خطته من أساسها ، وانما على العكس ، وجد فيها قوة دافعة لخطته ، تجدد شبابها وتمنحها فرصة جديدة .

هنا وقف دالاس مع مصر أيضا .

وقف معها كما قلت — لا حبا فيها — وانما ليسبق روسيا .

وقف معها حتى يستطيع أن يمشى من جانبها فى الوقت المناسب ، ويأخذ معه باقى الواقفين بجوارها .. شعوب العرب .

تلك — بلا أدنى شك — كانت نيته .

ان ظروف ما بعد العدوان على مصر منحته فى تقريره الفرص التالية .

١ — فرصة أن يبدو وكأنه اختار المبادىء على أصدقائه .

٢ — فرصة أن تستعيد أمريكا فى الشرق العربى ما فقدته بسبب سياستها فى اسرائيل وسياستها فى المنطقة فى غير اسرائيل .

٣ — فرصة أن يعطى الذين يدعون الى صداقة أمريكا من حكام العرب ، مادة يستعملونها فى دعوتهم الى صداقة أمريكا .

٤ — فرصة أن يستطيع من غير شك فى نواياه أن يوجه ، وأن يوصى .

٥ — فرصة ان مصر لن تكون بعد العدوان — وجميله عليها أثناء العدوان — قادرة على أن تقاوم تحركاته بنفس القوة التى كانت تقاومها بها قبل العدوان .

٦ — فرصة أن مصر نفسها — هكذا تصور — قد ضعفت بعملية العدوان ، تحطم جيشها — هكذا ظن — وخرست اذاعتها — هكذا تخيل — وضاعت هيبتها — كذلك قدر !

٧ — فرصة أن بعض حكام العرب أصبحوا الآن فى حل من أن يتعاونوا مع أمريكا جهارا نهارا .. بدل ان كان التعاون فى السر الدفين كشرب الخمر نهارا .. وفى رمضان !!

فى تلك الأيام .. أشرقت فى رأس دالاس ، فكرة المشروع الذى تحمل وزره وذنبـه ، ذلك الطيب المريض ، ايزنهاور ، فأصبح على اسمه يعرف بـ : مشروع ايزنهاور .

كان مشروع ايزنهاور السلاح الفعال لاتمام عملية عزل مصر ! أو كذلك كان الظن !

كانت تلك هى الأيام التى كرر فيها فيلسوف لبنان الكبير ، شارل مالك عبارته الشهيرة :

« ان الولايات المتحدة قد قررت عزل مصر .. وشطبت اسم عبد الناصر من المنطقة » .

فى واشنطن فى تلك الأيام عقدت اجتماعات عديدة .

كانت أمريكا ـ أو كان دالاس ـ طرفا فيها من ناحية ، وعلى الناحية الأخرى كان هناك زوار من الشرق الأوسط ساسة وملوك!

وكانت الصورة التى يقدمها دالاس ، للطرف الأخر القادم من الشرق كما يلى .

• ان مصر قد انتهت .

انتهت عسكريا ، وانتهت اقتصاديا ، وانتهت سياسيا .

• هذه ناحية من الصورة .

• والناحية الأخرى أن أمريكا قررت بطريقة لا تقبل الجدل أو المساومة أن لا تتعامل مع نظام الحكم القائم فى مصر .

ثم كان دالاس يضيف :

« ان معلوماتنا على أى حال أن نظام الحكم الحالى يتهاوى .. وانه اذا عاش اسبوعا ، فلن يقدر على الحياة فى الأسبوع الذى يليه » .

وفى جو واشنطن فى تلك الأيام ، لم يكن هناك ما يكذب دالاس .

بل ان ظواهر الأحوال فى العاصمة الأمريكية ، كانت تضفى عليه مسحة من الواقعية ، يعززها ويؤكدها ما يبدو من عزم دالاس وتصميمه ، على أنه اذا لم تكن تلك هى حقيقة الصورة ، فانه ينوى بنفسه — بكل امكانيات أمريكا — أن يجعل صورته حقيقية ! .

فى تلك الأيام ، بدأت قصور فى عواصم عربية ترقص على ايقاع النغم الذى يعزفه دالاس ، وبدأت ساعات كثيرة يعاد ضبطها على توقيت واشنطن !

فى تلك الأيام قرر بعض الحكام أن يبعدوا ، واذا مصر ستنهار من أساسها فما الذى يدفعهم الى قربها فيسقط فوق رؤوسهم ما سوف يتهاوى من حطام وركام .

أليس ذلك صوت العقل .

أجل ، وبدا وقتها أيضا أنه صوت المصلحة .

واستدار بعضهم ومشى الى بعيد .

ولم ينس وهو يستدير ويمشى الى بعيد ، أن يقول كلمة أو كلمتين ، أو تهمة أو تهمتين ، يضعهما على رأس مصر ، حتى

يبرر لنفسه ، ولمن يحسنون الظن به من الناس ، سر انفضاضه وتراجعه .

حتى اذا لم يصدق الناس ، بل حتى اذا لم تصدق مصر ، فالحرج كله لن يطول عن شهر أو شهرين ، ثم ينقضى الحرج ، لأن مصر لن تكون هناك لتوجه كلمة عتاب ، أو نظرة عتاب !

قلت ، فى تلك الأيام كانت قصور فى عواصم عربية ترقص على ايقاع النغم الذى يعزفه دالاس ، وكانت ساعات كثيرة يعاد ضبطها على توقيت واشنطن ، كذلك فى تلك الأيام كانت هناك آذان كثيرة تصيخ السمع فى اتجاه القاهرة تنتظر أن تسمع القرقعة التى تسبق التهاوى والانهيار .

وفى خلال ذلك كله .

كان العمل يجرى على المكشوف ، وكانت « التحركات » ظاهرة للعيان .

لم يكن هناك بين الذين « يعملون » و «يتحركون» من يكلف خاطره جهد التستر ..

لماذا التستر .. ؟

فى غيبة الديدبان .. بل حتى فى غيبة الندم .

نموذج مما جرى فى تلك الأيام :

« العمل » ، و « التحركات » التى جرت فى الأردن .

ولكن كيف أرويها .. كيف أروى ما جرى فى الأردن ، دون أن أفقد انصافى للناس وللحوادث !

ان الحقيقة لا تعيش فى فراغ ..

لا شىء أبدا يعيش فى فراغ ، وانما كل شىء يتشكل ، بالوعاء الذى يضمه .

والأحداث ، أحداث الأردن ، كانت تتصل اتصالا مباشرا بكفاح وطنى ، فهل أضمن انصافى فى روايتها ؟

قلت ان الحقيقة لا تعيش فى فراغ .

وما أتصور أنا أنه الحقيقة فى الأردن ، هو دون شك متأثر ، بمشاعرى .. بعواطفى .. بعقائدى !

لذلك سأترك رواية أحداث الأردن لغيرى .

سأترك الرواية لصحفى أمريكى ، هو جون أوكيرنى ، كتب مقالا فى جريدة « نيشن » واحدة من الصحف الأمريكية الجادة المتخصصة فى الدراسات العميقة ، والمقال منشور فى عدد ١٢ أكتوبر سنة ١٩٥٧ من هذه الجريدة ، وكل صفحة فى هذا العدد عليها ختم .

« مكتبة الولايات المتحدة » .

٦ شارع الشيخ بركات .

جاردن سيتى — القاهرة .

أجل ، فان العدد استعارة من مكتبة السفارة الأمريكية هنا فى القاهرة !

المقال يبدأ فى صفحة ٢٤٠ من الجريدة ، المقال عنوانه : لماذا يبكى الملك ؟

المقال يبدأ بجملة نصها :

« الجيش والبوليس يملآن الشوارع ، الجسور والكبارى تنسف فى الليل ، الناس فى عمان يتلفتون يمينا ويسارا قبل أن يتكلموا .

والذى يجد فى نفسه الجرأة أن يتكلم يقول :

— هذا حال لايمكن أن يدوم .. حتى الملك حسين لم يعد يطيق تحمله .. ان الانجليز ذهبوا .. وعلى الأمريكان أن يذهبوا أيضا .. هم الآخرون » .

تلك بداية المقال :

ثم عبارة بعدها يقول فيها الكاتب بالنص :

« اننا لا نستطيع أن نخلع من أذهان الناس ، ليس هنا فقط فى عمان ، وانما فى عواصم العالم كلها ، ان وزارة الخارجية الأمريكية ، قد استعملت الدولارات لكى تسقط حكومة شعبية فى عمان كانت تنادى بالحياد الايجابى » .

ثم يمضى المقال بعد ذلك بالحرف الواحد :

« ان عواصم العرب كالأسواق القديمة ، ما تقوله فيها يسمعه كل الناس ، قل كلمة هنا ، وستجدها تدور فى البلد كله حتى تصل الى هناك .

وآخر ما سمعته أن جماعة من الضباط ذهبوا للملك الحسين ورجوه فى تغيير سياسته وفى أن يعود الى الصف العربى الذى ابتعد عنه ، وقال الضباط للملك انهم علموا أن أمريكا تضغط

لتوطين اللاجئين فى بعض البلاد العربية بقصد تصفية مشكلتهم وذلك لا يحقق الا أمانى اسرائيل .

وبكى الملك وقال لضباطه :

— لا أستطيع أن أفعل شيئا .

ذلك ما سمعته فى مدينة عمان ، ولكن القصر فى عمان ، يروى الحكاية بطريقة أخرى ، يرويها على أن الملك حاول أن يتخلص من سمير الرفاعى ، الذى يتهمه الرأى العام العربى ، والأردنى ، بأنه عميل أمريكى ، يتقاضى حتى الآن مرتبا من شركة البترول العراقية ، ولكن سمير الرفاعى أحس بمحاولة الملك ، فذهب الى المستر مالورى سفير الولايات المتحدة فشكا له نية الملك ، وذهب مالورى الى الملك حسين يحذره من نتائج التخلص من سمير الرفاعى .

هنا — تقول مصادر القصر فى عمان — بكى الملك ! » .

ويمضى بعدها مقال اوكيرنى !

« ولكن لماذا يبكى الملك ؟

ان بداية القصة أن مجموعة من الضباط الشبان ذهبوا الى الملك فى العام الماضى وأخطروه أن التحكم البريطانى فى الأردن يجب أن ينتهى ، وأن جلوب يجب أن يخرج ، واستجاب لهم الملك ولو لم يستجب لكان عليه أن يخرج مع جلوب .

كذلك استيقظ حسين يوما فوجد نفسه بطلا تعبده الجماهير ولكن الأمريكان تحركوا الى العمل عندما حانت الفرصة .

أسقط الملك وزارة النابلسى ، وتحرك الأسطول الأمريكى السادس ، الى الشرق ، وزور الملك حسين (FAKED) مؤامرة ضد نفسه ورفع علم مقاومة الشيوعية الدولية ؟

وتوقف شعبه عن الرقص والغناء .

وحبس نفسه داخل قصره وغير كتيبة الحرس .

وفى سوق عمان قال لى أحد الذين جرأوا على الكلام :

« هذا كله من أجل خلاف بين الملك ووزير الملك .

لن نستبعد بعدها ، اذا اختلف رجل مع زوجته فى فراشهما أن يبعث دالاس بارجة تخترق السرير ، وتبعد بينهما ، حتى تفرقهما عن بعضهما » !!

ولكن كيف تحرك الأمريكان الى العمل .. هنا يقول أوكيرنى فى مقاله ما نصه :

— كانت سيارة مالورى — السفير الأمريكى فى عمان — تشاهد فى ليال كثيرة بعد منتصف الليل أمام بيت سمير الرفاعى .

ثم تحقق أن سمير الرفاعى الذى يتقاضى مرتبا قدره ١١ ألف دولار فى السنة من شركة البترول العراقية قد دفع دينا قديما عليه مقداره سبعة آلاف جنيه الى تاجر كان يداينه اسمه صبحى الحلبى.

كذلك تحقق أن مثقال الفائز ، ابن عاكف الفائز . وهو الآن وزير الزراعة والانشاء والتعمير قد دفع فجأة مبلغ عشرة آلاف جنيه فى بنك عمان سدادا لكمبيالة كان البنك قد يئس من سدادها من خمس سنوات :

كانت هناك دولارات كثيرة تجرى فى عمان .

حتى لقد انخفض سعر الدولار فى السوق عن سعره الرسمى.

وكان الملك يذهب كل ليلة الى الحفلات الراقصة فى السفارة الأمريكية حيث يقال له :

« ان جمال عبد الناصر يكره كل الملوك » .

« وان القوات السورية المرابطة فى الأردن سوف تستخدم ضد عرشك .. وان مصر التى وعدتك بمعونة .. هى نفسها فى حاجة الى المعونة بعد أن ساءت أحوالها الاقتصادية » .

كان ذلك ما حدث فى الأردن .

وكان ما حدث فى الأردن خطوة فى سياسة عزل مصر .

ولكن عام ١٩٥٧ كله انتهى وعزل مصر لم ينجح .. بل الدليل قائم على أنه انتهى الى الفشل !

ولكن هنا العقدة .

فى منتصف الطريق انتهت خطة دالاس .

ان الذين تورطوا فى الأردن ، وفى غير الأردن ، ركبوا المركب الصعب على أنه مرحلة .. على أن الأمور بعد هذه المرحلة يجب أن تصل غاياتها حتى تنتهى مصر ..

حتى لا تكون هناك .. تحاسب .

أو تكون هناك .. تعاقب .

أو لا تكون هناك تنظر بكبرياء الى الذين تسللوا من وراء ظهرها والخناجر فى أيديهم .. يريدون طعنها .

ولكن فى منتصف الطريق انتهت خطة دالاس كما قلت .

وماذا يمكن أن يفعلوا الآن .

أو غدا عندما يرحل الأسطول الأمريكى السادس من البحر الأبيض ، ولسوف يرحل ذات يوم .. الا اذا تحول هذا الأسطول الى « حامية رومانية » تعسكر فى منطقة ، ثم تتزاوج من أهلها ، ثم تستقر بينهم وتنقطع الصلات بينها وبين روما .. واشنطن هذه الأيام !

سوف يرحل الأسطول السادس اذن — يوما —

وهنا عقدتهم ..

لم يكن للذى فعلوه معنى ، الا اذا كان دالاس سيقدر على المضى حتى آخر الشوط .

ويرفع الابرة من جهاز التفجير من قلب شحنة البارود التى هى القومية العربية .

كانوا يظنون أن خطته واسعة ، وأنهم فيها ليسوا الا عوامل مساعدة ، أما هو فلم يستطع .

أما والظروف أثبتت أن خطة دالاس لم تكن الا هم !

عقدة العقد .. مزيج من مركبات الذنب ، والعناد ، والدفاع عن النفس .

ومنذ أسابيع كان فى الجو لغط — مجرد لغط — عن تحسن فى العلاقات بين مصر وأمريكا .

وفى اليوم التالى دعى السفير الأمريكى فى عمان مالورى الى قصر بسمان ليقول له الملك بنفسه :

« انه فى أشد القلق لما يسمع .. ومعنى ذلك اذا صح أن أمريكا تبيع أصدقاءها وتتركهم للذئاب تنهش لحمهم » .

ثم كرر السيد نورى السعيد رئيس وزراء العراق نفس المعنى ، لجون فوستر دالاس ، بنفسه فى زيارته الأخيرة لواشنطن.

وفى عمان الآن وفى غير عمان ضحايا لدالاس غرر بهم ، أوهمهم أنه عزم ونوى ، وأوهمهم أنه قادر ومصمم !

ثم خلى بهم فى الموقف الحرج .. والساعة العصيبة .

ولقد كان فعلا عزم ونوى .

وكان فعلا حشد امكانياته وصمم !

ولكن المهمة التى كانت أكثر من قدرته .

كان قد باع جلد الدب قبل أن يصيده !

ماذا يفعلون به ، بعد هذا الذى فعله بهم لا شىء فى أيديهم .. الا عقدة ..

وكيف يمكن أن تحل العقدة حتى اذا كانت مصر على استعداد للصفح والنسيان ، وترك الماضى يذهب مع الماضى ؟

كيف .. ؟

كيف يمكن أن تحل عقد هؤلاء الضحايا .. ضحايا دالاس فى الشرق الأوسط ، جمعية ضحايا العقد النفسية لدالاس ؟

حكاية !!

العقدة الخامسة

عقد الاضطهاد

أو

هرقل والعروش الهاشمية

المأساة الاسلامية الكبرى وآثارها ـ نحن آل البيت ـ صلاة الفجر مع الملك ـ مجزرة كربلاء وأشباحها ـ رسالة ورسالة ـ هل العروش رسالة ـ غلبة المطامع على المبادىء ـ معونة القريب ومعونة الغريب ـ الملك يقول لهم : لا تجيئوا ـ أسير الفم والكرب ـ الملك ومضحك الملك ـ دسائس الأعداء وحسد الأمراء ـ أحلاف هرقل !

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

عقـدة !

جذورها عميقة ، ضاربة فى أغـوار الماضى ، أربعـة عشر قرنا من الزمان الى أيام الصراع بين امير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وبين امير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان غفر الله له ! .

أجل ، ان عقدة الأسرة الهاشمية ، لا تستقر فى مكانها الصحيح من تاريخ الأمة العربية الا على ضوء الصراع المرير القديم ، بين على وبين معاوية ، وبين أبناء على وأحفاده من بعده ، وأبناء معـاوية وأحفاده من بعده ، وعلى هدى الآثار التى ترتبت على هذا الصراع ، ورسبت منه فى نفوس الأبطال الذين عاشوا المأسـاة الاسلامية الدامية الكبرى ، وورثها عنهم بعدها هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم على مدى أجيال متعاقبة حتى كان عهد الحسين ابن على ، الملك حسين ، ملك الحجاز ، وعميـد الأسرة الهاشمية فى عهدها الجديد .

وربما كان الذى وضع طرف الخيط فى يدى ، هو صاحب الجلالة الملك عبد الله بن الحسين ملك المملكة الهاشمية الأردنية ، عندما قال لى ذات يوم من سنة ١٩٤٨ ، وكانت قيامة العرب قائمة عليه بعد تسليم اللد والرملة المشهور :

— كذلك نحن آل البيت ، هذا قدرنا المكتوب ، ان الله يمتحننا بهذا العذاب الذى ابتلينا به .. ان العرب يتصورون أننا نخون .. أمرنا لله ما دام ذلك ظنهم .. وعند الله حسن الجزاء .. لنا آل البيت أحفاد رسول الله .

وفيما بعد ، فى الظروف المثيرة لسنة ١٩٤٨ ، سمعت نفس النغمة أكثر من مرة يرددها الملك عبد الله ، وأيامها كنت كثير التردد على قصر رغدان ، فقد كانت عمان هى مركز عملى فى الظروف التى سبقت وتلت حرب فلسطين ، وكانت بيننا صداقة من نوع مثير .. ملك عجوز محافظ .. وصحفى شاب ، انطلق — من غير علم أو تجربة — ينافس دون كيشوت ويتصيد المعارك من الهواء .. مع طواحين الهواء !

وكانت بين الملك وبينى مناقشات حامية ، فى أحوال العالم العربى وأوضاعه وقتها ، وكانت المناقشات لا تحلو له — يرحمه الله — الا بعد صلاة الفجر .

ومع فجر كل يوم — فى تلك الأيام فى عمان — كان التليفون فى غرفتى فى فندق فيلادلفيا يدق ، ثم يقال لى ان « المقر »

— القصر الملكى — يطلبنى ثم أسمع صوت هزاع المجالى — الذى أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء الأردن وحاول أن يفرض عليه قيود حلف بغداد — وكان هزاع وقتها تشريفاتيا خاصا للملك — يقول لى ان الملك يطلبنى لصلاة الفجر فى صحبته .

وأترك فراشى وأمرى لله ، وأصعد الى المقر — الى قصر رغدان ، أصلى الفجر وراء الملك ، ثم أجلس معه ، وبعض المقربين اليه من حوله ، وقط صغير أسود قابع بجواره ، ثم تبدأ الأحاديث ، وتتشعب .. وشىء غريب ، أنها جميعا كانت تنتهى الى نفس العبـارة :

— كذلك نحن آل البيت .. هذا قدرنا المكتوب !

وفيما بعـد أيضـا ، فى الظروف الأكثر اثارة ، التى تلت سنة ١٩٤٨ ، سمعت نفس النغمة من غير الملك عبد الله ، من ملوك الأسرة الهاشمية وأمرائها .

سمعتها من الأمير عبد الاله ، فى المرة الوحيدة اليتيمة التى التقينا فيها .

وسمعتها من الملك حسين ، فى أول مرة رأيته فيها بعد أن أصبح ملكا ، وسمعتها من غيرهما !

— كذلك نحن آل البيت .. هذا قدرنا المكتوب !

ولكن ما أشد ما تغيرت ظروف « القـدر المكتوب » على آل البيت .

ما أبعد الفرق بين « القدر المكتوب » الذى بدأ منذ أربعة

عشر قرنا من الزمان ، والقدر المكتوب الذى انتهت اليه الظروف، فى أيامنا الحديثة !

منذ أربعة عشر قرنا كان على بن أبى طالب ، وأبناء على ، وأحفاد على ، يعتقدون أن الخلافة حقهم أو هى واجبهم .

وبعد أربعة عشر قرنا كان الملك حسين الأول ، ملك الحجاز ، وأبناؤه ، وأحفاده ، يعتقدون أن الملك حقهم — أو ربما — وصاحب هذا الرأى هاشمى غال على قلبى — هو واجبهم .

واستشهد على ، قتل وهو يصلى الفجر ، فى سبيل ما اعتقد أنه حقه أو واجبه .

ثم ذبح ، أبناء على ، وأحفاده — لم ينج منهم الا واحد — ذبحوا ، قطعت رؤوسهم بالسيوف ، ومزقت أجسادهم بالخناجر فى مجزرة « كربلاء » المخزية — وكان ذلك أيضا — فى سبيل ما اعتقدوا أنه حقهم أو واجبهم .

ثم مضت الأيام ، والسنين ، والقرون .

وفى القرن العشرين ، عادت الأسرة الهاشمية ، والظروف من حولها مواتية ، تطلب ما تظنه حقها أو — ولأتجاوز — واجبها !

ولكن المأساة القديمة ، ومجزرة كربلاء — الحمراء بالدم الزكى — كانت فى خيالها ، وكانت فى أعماق وجدانها .

هنا كان التناقض المخيف بين الماضى والحاضر .

فان الأسرة الهاشمية — وذلك خيالها ووجدانها — كانت على استعداد لأن تفعل كل شىء حتى لا يتكرر التاريخ .

وهكذا أصبح الحق عرشا .. أو عروشا .

وهكذا أصبح الواجب مغنما .. أو مغانم .

ذلك أن الأسرة التى كانت جد حريصة على أن لا يتكرر التاريخ ، والتى كانت على « استعداد » لأن تفعل كل شىء حتى تضمن عدم تكراره .. مضت فى هذا « الاستعداد » الى الحد الذى ما كان يتعين عليها أن تصل اليه .

كيف ؟

سؤال عويص ؟

وأعود الى الماضى لأرد عليه ، وأرسم القياس له ، وأسأل :

— كيف يكون حكم التاريخ على ، على بن أبى طالب كرم الله وجهه لو أنه فى صراعه مع معاوية على الخلافة ، استنجد بهرقل ملك الروم ، وطلب منه العون والمدد ، و « التحالف » معه ضد ذلك الفريق من المسلمين الذى خرج ينازعه الخلافة ؟

ثم أسأل أيضا :

— كيف يكون حكم التاريخ ، على أبناء على ، على الحسن والحسين ، وأحفاد على ، لو انهم لجأوا الى بلاط قسطنطين الثانى — ملك الروم على عهدهم ، وحفيد هرقل — وعادوا يستردون ملك على ، يفتحون دمشق ، والكوفة ، ومكة ، والمدينة ، فى يدهم حراب الروم ، وعلى رأسهم أعلام الروم ؟ .

ولكن عليا ، وأبناء على وأحفاده لم يفعلوا ذلك ..!

لماذا ؟

لأنهم أصحاب رسالة .

ان صاحب الرسالة ، يقاتل ، ولا يهمه أن يستشهد فى سبيل رسالته ، بل انه يعتبر الاستشهاد ، جزءا من حقه ، بل من واجبه ، كالرسالة نفسها سواء بسواء .

وهنا .. هنا بالذات تبعد المسافة ، ويتسع الخلاف ، بين الذى حدث فى القرن الأول للهجرة ، وبين الذى ما زال يجرى فى القرن الرابع عشر للهجرة !

ان الاستشهاد القديم ، فى القرن الأول للهجـرة ، لم يلهب حماسة القرن الرابع عشر للهجرة ، الى مستوى ايمانه وفدائيته ..

بل ..

بل ترك أثرا عكسيا .

خلق الرغبة والاصرار على عدم الاستشهاد .

هكذا لم يصبح على ، وأبناؤه وأحفاده فى القرن الأول ، مثلا أعلى للأحفاد فى القرن العشرين ..

لم يصبح مثلا ، وانما أصبح أمثولة .

لم يصبح نموذجا ، وانما أصبح عبرة .

وهكذا جاءت — فى القرن العشرين — جيوش هرقل ، وأحلاف هرقل ، وقواعد هرقل ، تسـند عروش آل البيت ، وتحميهم من كل سوء وشر !

ان الذى حدث للأسرة الهاشمية فى القرن العشرين — وقد تكون مقدماته قد بدأت قبل ذلك بكثير — مأساة ، لا تقـل

الكارثة فيها عن مذبحة كربلاء المخزية ، ولكن من نوع آخر .

كانت الأسرة من ناحية ، تطلب ما تتصور أنه الحق أو الواجب ، ولكنها من ناحية أخرى لم تكن على استعداد لأن تتحمل ما يتعين على صاحب الحق أو الواجب أن يواجهه فى سبيل حقه وواجبه .

وكانت النتيجة المنطقية بعدها :

« غلبة المطامع على المبادىء » .

فان طالب الحق .. غير طالب العرش .

وطالب الواجب .. غير طالب الغنيمة !

وهنا تحول الاستشهاد المؤمن فى القرن الأول للهجرة ، الى عقدة استشهاد مفتعلة فى القرن العشرين .

ذلك أن الأسرة حين أحست بالفجيعة تعصر قلوب الناس ، وخيبة الأمل تسكب المرارة فى قلوبهم أكيالا أكيالا .. لم تجد ما تدافع به عن نفسها الا أن تعود الى المذبحة القديمة ، تغطى بها المذبحة الجديدة ، وهنا ظهرت النغمة .. نغمة :

— وكذلك نحن آل البيت .. هذا قدرنا المكتوب .

لقد حاول القرن الرابع عشر للهجرة ، أن يخفى وجهه وراء القرن الأول للهجرة .

وحاول العرش أن يتبرقع بالرسالة .

وارتسمت مسحة الحزن النبيل — ! — التى تشكل اليوم قسمات وجوه عدد كبير من أفراد الأسرة الهاشمية .. تغطى ملامح الطمع .

وكان ذلك هو « الفرار » الوحيد الذى استطاعته الأسرة الهاشمية .

وكانت لهذا كله آثار وذيول .

من آثاره وذيوله ، أن الغريب أدنى من القريب الى عروش الأسرة الهاشمية ، وقصورها ..

لماذا ؟

لأن الغريب يجهل ، ولأن القريب يعرف !

ولو مضيت أعدد الشواهد لما انتهيت .

لماذا ، مثلا ، ثقلت المعونة العربية على الملك حسين ، وفضل عليها معونة يمنحها له ايزنهاور ؟

لو سئلت .. لقلت :

— لأن معونة العرب ، معونة قريب ، ومعونة ايزنهاور معونة غريب .

لقد حاول الملك حسين جهد طاقته أن يروغ من اتفاقية التضامن العربى قبل توقيعها .

ولقد سمعت وزراء فى حكومة الملك الوطنية — التى لم يطق عليها صبرا — يروون كيف أرغم الملك ارغاما على التوقيع .

لقد تعلل الملك أمامهم فى تلك الأيام بأن مصر غير مستعدة .

وطار هؤلاء الوزراء الى مصر فسمعوا من مصر ما يؤكد استعدادها وكان الملك قد ذهب الى الرياض .

وأبرقوا اليه فى الرياض بأنهم قادمون اليه .

وبعث اليهم يقول : لا تجيئوا !

وعصوا أمره وركبوا الطائرة اليه ، وكحد السيف وضعوا أمامه استعداد مصر القاطع لمعونة الأردن .

ولم يكن أمام الملك الا أن يجىء الى مصر ويوقع .

ولكنه — والحق يقال بعدها — فعل كل ما فى طاقته حتى يجعل استعداد مصر للوفاء بما تعهدت به ، ضربا من الحماقة والجنـــون .

فلم يكن عقلا ولا حكمة أن تدفع مصر معـــونة تضرب بها القومية العربية فى الأردن ، ويجلد بها الشعب العربى فى الأردن، ولا يستفيد منها الا جيوش هرقل ، وأحلاف هرقل ، وقواعد هرقل التى تسند عرش سليل آل البيت فى عمان ، حتى وان كان هرقل فى العصر الحديث ، اسمه : دوايت ايزنهاور .

• ومن آثاره ، وذيوله ، ان العـــلاقات بين أفراد الأسرة الهاشمية تربطها الكراهية ، ولا يجمعها الحب .

ذلك أن الذى تخفيه الأسرة عن النـــاس ، يظل ظاهرا بين أفرادها .

واذا كانت براقع الرسالة تغطى المطامع فى العروش أمام الملأ ، فان العروش ، داخل دهاليز القصور ، تصبح صراحة ، ومن غير مداراة أو مواربة هى الأصل ، وهى الهدف .

ان البراقع تنزل وراء أسوار القصور العالية .

تنزاح المبادىء .. وتسفر المطامع .

ويكون الصراع .

ومرة ثانية لو مضيت أعدد الشواهد لما انتهيت .

كان الملك حسين الأول فى أواخر أيامه يشكو لطوب الأرض من أبنائه ، جميع أبنائه .

كان يتهم فيصل الأول بأنه خانه وتنكر له وسرق منه عرش العـــراق .

وكان يتهم الملك عبد الله بأنه باعه بامارة شرق الأردن .

وكان يقول صراحة .

« بسببهما فشلت القضية العربية » .

ولقد كان الملك حسين الأول ظالما فيما يتعلق بفيصل الأول .

وفى تاريخ الأسرة الهاشمية فى القرن العشرين لا أجد صفحة يمكن الدفاع عنها الا صفحة « فيصل الأول » أو « أسير الغم والكرب » كما أسماه أمين الريحانى فى كتابه المشهور « ملوك العرب » ذلك أن فيصل الأول لم يكن مجرد طالب عرش ، وانما كانت له بعد العرش غايات ، ولكن فيصل الأول كان « فردا » معقولا أكثر منه « هاشميا » معقولا ..

لماذا ؟ لأنه مثل وحيد ، فى تاريخ طويل عريض !

وكان عبد الله ، الملك عبد الله ، يكره فيصل الأول ويكره والده الملك حسين ، وأنا واثق من غير علم ، أن فيصل الأول نفسه كان يكره أباه ، وكان يكره أخاه !

وما كان صحيحا بالأمس .. ما زال صحيحا حتى اليوم .

ما زال حسين ، حسين الثانى ملك الأردن الآن ، يكره فيصلا — فيصل الثانى — ملك العراق الآن — والعاطفة من الناحية الثانية متبادلة .

ولا تستطيع الرحلات المفاجئة بالطائرات من عمان الى بغداد أو العكس ، أو حتى الاتحادات المصطنعة أن تقنعنى بأن الكراهية خفت حدتها .. وأن الحب ينشر أجنحته الرفافة على القصور الهاشمية فى العاصمتين !

• ومن آثاره وذيوله ما يبدو فى تصرفات أفراد الأسرة فى كثير من الأحايين ، من رغبة فى الهرب من الواقع ، والتماس السلوى من أى اتجاه ، فان الممثل الذى يقف على المسرح ليؤدى دورا معينا ، لا يستطيع بعد أن ينزل من فوق خشبة المسرح . الا أن يمسح الأصباغ والأدهان عن وجهه ، ويعود الى ملامحه الحقيقية .

وهنا تبدأ محاولات الهرب .

ومرة ثالثة لو مضيت اعدد الشواهد لما انتهيت .

كان للملك حسين الأول — مضحك خاص .

وكان للملك عبد الله — مضحك خاص .

وكان للملك حسين الثانى — فى الزمان الذى نعيش فيه — مضحك خاص .

كان الملك حسين الأول ، ما يكاد يفرغ من ديوانه حتى

يجرى الى مضحكه الخاص ، وكان الملك يأتى بضب أو ثعبان ، يلقيه فى ملابس مضحكه ثم يقضى الساعات .. يضحك ويضحك .. وينسى أو يتناسى .

وكان الملك عبد الله ، ما يكاد يفرغ من ديوانه حتى يجىء بمضحكه الخاص ، وكان الملك عبد الله — يرحمه الله — يحلو له أن يجرب براعته فى الرماية ، على اناء صغير ، يضعه على رأس مضحكه ثم يصوب عليه .

وبينما مضحك الملك يرتجف — يرتجف فعلا — يكون الملك مستلقيا على نفسه من الضحك ، يجرب أحكام التصويب ، على الاناء الصغير .. والاناء الصغير على رأس المضحك التعيس .

وليس يهم ما يجرى للمضحك .. وانما المهم أن يضحك الملك ويضحك ، وينسى أو يتناسى !

وكان للملك حسين مضحك اسمه خالد النجارى ، ولقد حملت الأنباء ، أنباء وكالات الأنباء الأمريكية — ونشرته صحف بريطانيا — ان مضحك الملك حسين قتل برصاصة طائشة بينما هو يؤدى واجبه أمام الملك ..

كان خالد النجارى .. بدينا ، وكان — يرحمه الله — رعديدا أو هكذا كان يتظاهر حتى يضحك الملك .

وكان الملك ، يغمز مضحكه على حين غفلة فى كرشه ، أو يطلق صوتا مفاجئا بالقرب من أذنه ، ثم يطربه رد الفعل ..

حتى انطلقت رصاصة ذات مرة من مسدس — وكان ذلك يوم ٤ أكتوبر الماضى — أى فى زحمة الأحداث فى الأردن — وكان الهدف من الرصاصة أن تزعج مضحك الملك حتى يضحك الملك ، ويضحك ، وينسى أو يتناسى ، ولكن الرصاصة لم تكتف بمجرد الازعاج ، وطاشت لتستقر فى قلب مضحك الملك .

• ومن آثاره وذيوله ، أن الأقوال فيما يصدر عن الأسرة الهاشمية ، تحاول أن تستدرك ما تقصر الأفعال عن الوصول اليه.

أى أن الأقوال أشد كرما من الواقع ، فى وصف التضحيات.

والأقوال أشد كرما من الواقع ، فى الاشادة بالموقف .

أى أن الأقوال تختلس أحيانا — أحيانا كثيرة — ألوانا من المأساة القديمة ، مأساة القرن الأول للهجرة ، لتحاول أن تصبغ بها ، المأساة الجديدة ، مأساة القرن الرابع عشر للهجرة .

ومرة رابعة لو مضيت أعدد الشواهد لما انتهيت .

العبارات الفخمة الضخمة « مثلا » فى أى خطبة رسمية لجلالة الملك حسين .

« التضحية » ، « الفداء » ، « بذل النفس والنفيس والغالى والرخيص » ، « مسئولياتنا الجسام » و « رسالتنا المقدسة » الى آخره .

أقوال .. فصيحة وبليغة .. ربما .

ولكنها أشد كرما من الواقع .. على وجه التأكيد .

لقد كانت الشروط السياسية فى اتفاقية الملك حسين الأول مع الانجليز التى عقدت فى يناير سنة ١٩١٩ .. أربعة ، وكانت الشروط الأربعة كما يلى :

١ — تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة .

٢ — تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى تدخل كان بأى صورة كانت فى داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعد أيا كان الشكل ، حتى لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الأعداء أو من حسد الأمراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة .

٤ — تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى .

٥ — تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من السلاح والمال .

هذه واحدة .

وكانت بريطانيا العظمى هى التى منحت عرش العراق لفيصل الأول ، واذا كان فيصل الأول كما قلت اعتبر عرش العراق وسيلة الى غاية فان الذين جاءوا بعد فيصل الأول — اعتبروا الغاية وسيلة والوسيلة غاية .

هذه واحدة ثانية .

وواحدة ثالثة .

ان ونستون تشرشل ، وكان وزير المستعمرات لبريطانيا العظمى . هو ، بيده الذى أعطى الملك عبد الله أمارة الأردن ، وهو بيده الذى رسم حدودها .

وعرش العراق اليوم فى حماية حلف بغداد .

وعرش الأردن فى أحضان مشروع ايزنهاور .

هذا هو الواقع على حقيقته ، من غير كرم الألفاظ .

هى اذن العروش .. وطلب الحق — أو ما يظن أنه الحق — وسيلة .

وهى اذن الغنائم .. ومسئولية الواجب — أو ما يظن أنه الواجب — علة .

عقدة ...

جذورها عميقة ضاربة فى أغوار الماضى ، أربعة عشر قرنا من الزمان وفى الشرق العربى اليوم كثيرون — وأنا منهم — صدقونى ، يتمنون لو كان الحال غير الحال .. أو لو كان الحاضر كضوء للماضى .. أو لو كان القرن الرابع عشر للهجرة فى مستوى القرن الأول .

وكيف السبيل .

كيف يمكن أن يصبح على ، وأبناؤه وأحفاده ، فى القرن الأول نموذجا للأحفاد فى القرن العشرين .

وكيف يمكن أن تعود الى كربلاء الدامية الحزينة قداستها كمثل أعلى ، بدلا من أن تكون أكثر من عبرة .. وعظة .

أو كيف يمكن أن تشفى عقدة « الاستشهاد » « عقدة الاضطهاد » .. عقدة « كذلك نحن آل البيت وهذا قدرنا المكتوب » !

ويحل مكانها « استعداد للاستشهاد » فى سبيل رسالة ، لا تتردد فى أن تبذل الدم للحق ، ولا ترضى أن تتحول المبادىء الى مطامع حتى تقوم العروش ، ولو كان سندها جيوش هرقل ، وأحلاف هرقل ، وقواعد هرقل !!

twitter.com/kotobmamno3a تصوير

العقدة السادسة

عقدة أوديب

أو

بريطانيا التى كانت عظمى !

مأساة الاغريق ـ سبعة أعراض للعقدة ـ
ايدن يتصل بأيزنهاور ـ برقية مفاجئة لمحافظ
البنك الأهلى ـ من الذى يتحمل العقوبة ـ
لقد قاباوها كملكة ـ لذة فى العذاب ـ أحرم
الحرام ـ الكولونيل جولبرن آخر من يعرف ـ
جلوب وباجريف ـ ايدن يتحدث بعد العشاء
مع فيصل ونورى السعيد ـ صوت ايدن
وصوت القدر ـ بريطانيا فى حاجة الى فرويد !

كان اوديب ملـكا ، وكذلك كانت بريطانيـا العظمى !

ثم اصبح اوديب اسطورة فى الياذة هومير شاعر الاغريق ، وكذلك اصبحت بريطانيـا فى قصائد رديارد كيبلنج ، شاعر الامبراطورية التى لا تغرب الشمس عن املاكها !

ثم انتهى أوديب بأن أصبح عقدة عويصة فى علم النفس الحديث ، وكذلك انتهت بريطانيا ، عقدة عويصة فى الشرق الأوسط الجديد .

كيف جرى ذلك ؟

كيف تحول أوديب ، من ملك الى أسطورة ، ثم الى عقدة ؟

وكيف تحولت بريطانيا ، من مملكة الى أسطورة ثم الى عقدة ؟

مأســاة !

أوديب فى عصر الاغريق مأساة ، وبريطانيا فى العصر الحديث مأساة ، والتفاصيل كما يلى :

• قتل أوديب ذلك الذى لم يكن ينبغى له أن يقتله ، قتل أباه.

وارتكب أوديب الخطيئة مع « الحرام » الذى لم يكن ينبغى له أن يقترب منه ، ارتكب الخطيئة مع أمه .

وكان لأوديب عذره !

فلم يكن يعرف أن الذى قتله هو مصدر وجوده على الأرض، ولا كان يعرف أن التى تقاسمه الفراش كل ليلة هى تلك التى انزلق من بطنها الى الدنيا .

ولما عرف أوديب ، كانت صرخته الممزقة بالعذاب الانسانى .

وفى حمى الانفعالات المجنونة ، المشبوبة بنار الذنب والندم والعار ، جاء أوديب بأسياخ الحديد المتوهجة باللهب ، وفقأ بها عينيه ، ثم اعتزل البشر جميعا ، ونفى نفسه الى جزيرة بعيدة ، قضى فيها باقى عمره وحيدا مع العذاب !

« أما « ابيكاست » أم أوديب — شريكته فى الخطيئة على غير علمها — فلم تستطع أن تواجه العذاب ، فرت منه ، ومن الحياة كلها ، بأن علقت حبلا ، وعلقت من الحبل رأسها !

وحلت اللعنة على أبناء الخطيئة كلهـم ، وراحت تطاردهم بالشؤم والنحس !

هذه مأساة الاغريق .

• وقتلت بريطانيا ، أو حاولت بريطانيا أن تقتل ذلك الذى لم يكن ينبغى لها أن تقتله — القومية العربية .

وارتكبت بريطانيا الخطيئة مع « الحـرام » الذى لم يكن ينبغى لها أن تقترب منه ، ارتكبت الحرام مع اسرائيل .

وكان لأوديب الاغريق عذره ، من جهله .

أما أوديب العصر الحديث ، فقد كان بلا عذر ، لأنه كان يعـرف !

كان يعرف أن هذا الذى شرع فى قتله هو مصدر وجوده على الأرض ، فانه وحده الذى يمنح بريطانيا من عناصر الحياة فى مدنية القرن العشرين — البترول — ما يتيح لها أسباب البقاء .

وكان يعـرف أن تلك التى قاسـمها فراش الخطيئة ليـلة ٢٩ أكتوبر — اسرائيل — هى « أحرم الحرام » عليه فى لعبة الشرق الأوسط ، هى « الزواج » الوحيد الذى لا ينبغى له أن يقترب منه مهما كانت الظروف والأحوال ، كل شىء كان يغتفر فى لعبة الشرق الأوسط ، الا هذه اللعبة بالذات ، لعبة زواج رسمى شرعى بين بريطانيا واسرائيل !

ولما اتضحت الحقيقة — بعد أن انكشف « عقد » التواطؤ مع اسرائيل للعدوان على مصر .. على القومية العربية — أمسكت بريطانيا بأسياخ الحديد المتوهجة باللهب ، وحاولت أن تفقأ بها عيون الضمير العالمى ، ولم تنجح المحاولة ، ثم انتهت بريطانيا الى عزلة المنفى ، منفى لم يحملها اليه الندم ، وانما دفعها اليه الاحتقار!

أما شريكة الخطيئة ، شريكة « أحرم الحرام » — اسرائيل — فلم تفعل ما فعلته « ابيكاست » أم أوديب ، ذلك لأن «ابيكاست» العصر الحديث كانت بائعة هوى ، تمارس الخطيئة كل ليلة مع غريب ، مع أى غريب !

تلك وقائع المأساة فى أوديب الاغريق .

وتلك وقائع المأساة فى أوديب بريطانيا .

والتشابه فى الخطوط الرئيسية بينهما عجيب .

• قتل أو محاولة لقتل — ذلك الذى لا ينبغى قتله .

• زواج من « أحرم الحرام » .. وآخر من يجوز أن ترتكب الخطيئة معه .

وانتهت وقائع المأساة فى الحالتين الى « عقدة » .

وسألت كبار علماء النفس فى مصر .

— ما هى أعراض عقدة أوديب المشهورة فى علمهم النفيس .

وعد كبار علماء النفس على أصابعهم حتى سبعة !

سبعة أعراض تصاحب ذلك الذى تتملكه العقدة ، وتطبع جميع تصرفاته .

١ — شعور بالذنب .

٢ — استعداد للخضوع أمام الأقربين منه .

٣ — تردد فى اغتنام الفرص .

٤ — عقاب للنفس .

٥ — خوف من الناس .

٦ — رغبة فى تعذيب الغير ولذة فى هذا التعذيب .

٧ — رغبة فى عذاب النفس ولذة فى هذا العذاب .

مدهش !

تلك نفس الأعراض التى تصاحب سياسة بريطانيا الآن فى الشرق الأوسط ، وتطبع جميع تصرفاتها .

عدوا على أصابعكم .. سبعة .

نفس السبعة على أصابع علماء النفس فى عقدة أوديب المشهورة.

١ — قابلت — بعد العدوان — صحفيين من بريطانيا — من أشهر الصحفيين — وأعضاء فى مجلس العموم البريطانى — من أقوى الأعضاء — وساسة من أكبر الساسة فى بريطانيا .

وحين مددت يدى اليهم فى اللحظة الأولى للقاء ، كانت نظرتهم الى بدهشة : عجيبة ، مازلتم ترضون مصافحتنا ؟!

ومضى مراسل معروف ، لواحدة من أكبر الجرائد فى بريطانيا وأكثرها احتراما ، الى أبعد من ذلك حين قال :

— لو كنت مصريا ، لرفضت الى آخر العمر ، أن تلتقى يدى مع يد بريطانية .

ولم أكن الوحيد فى التجربة .

فى كل مرة ، التقى فيها مصرى ، أى مصرى ببريطانى ، أى بريطانى ، بعد العدوان ، حدث نفس الشىء أو شىء قريب منه .

حدث ذلك فى القاهرة ، وفى روما ، وفى مقر الأمم المتحدة بنيويورك ، بل فى لندن ذاتها حين ذهب اليها الوفد البرلمانى المصرى ليحضر المؤتمر البريطانى الدولى .

هو بعينه : الشعور بالذنب .

٢ — حاول انتونى ايدن يوم اتضح له فشل عدوانه على مصر أن يتحدث فى التليفون مع ايزنهاور .

ولأول مرة فى التاريخ قيل لرئيس الوزراء البريطانية :

— أن ايزنهاور مشغول ولا يستطيع التحدث فى التليفون الآن .

وعاد ايدن يكرر الاتصال التليفونى ظهر يوم ٩ نوفمبر ، وعصر نفس اليوم ، وفى المساء ، وفى كل مرة يكون نفس العذر هو الذى يرد على انتونى ايدن .

وفى اليوم التالى ، تعطف ، وتلطف ايزنهاور فترك هربرت هوفر ، نائب وزير الخارجية الأمريكية ، يرد على ايدن ويسأله .

— ما ذا يريد من الرئيس ؟

وسأل ايدن فى خضوع :

— ألا أستطيع أن أتحدث للرئيس بنفسى .

وقال هوفر :

— ان الرئيس مشغول ، واذا رأيت أن تقول لى الأمر الذى تريده فيه ، فانى أعدك أن أنقل اليه ما تقول :

ولم يكن أمام ايدن الا أن يقول ، وقال :

ثم مضى ايدن يلح فى الأيام التى تلت ذلك ، فى أن يأذن له ايزنهاور بلقاء معه .

وبعد تمنع طال ثلاثة شهور ، أذن ايزنهاور ، لرئيس الوزارة البريطانية أن يجىء للقائه ، وكان الرئيس الذى أذن له هو هارولد ماكميلان ، وكان سلف ماكميلان قد تحطم وانهار ، وتمزق على الصخور التى رمته عليها الأمواج العاتية ، لأكبر فشل فى التاريخ .

وسافر ماكميلان ليحضر اجتماع برمودا ، والنغمة التى ترددها صحف بريطانيا هى أنه لسنوات طويلة مقبلة ليس أمام بريطانيا الا أن تتبع قيادة أمريكا ، وتقتفى من غير طول نقاش آثار أقدامها على رمال الصحراء .

ثم تقبلت بريطانيا كل ما طلب منها أن تتقبله .

مشروع ايزنهاور للشرق الأوسط ، وكانت بريطانيا تتمنى العمى ولا ترى اليوم الذى تجد فيه أمامها مشروعا للشرق الأوسط — الذى كانت تعتبره شرقها الأوسط — يوضع وينفذ، وليس لها فيه دخل أو نصيب ، الا أن توافق وتتقبل .

ثم سارت بريطانيا على طريق الخضوع حتى أصبحت الآن :

قاعدة .. للصواريخ الأمريكية .

قاعدة .. للطائرات تحلق فوقها تحمل القنابل الهيدروجينية الحية .. الأمريكية .

هو بعينه : الاستعداد للخضوع أمام الاقربين .

٣ — قبلت مصر أن تتفاوض مع بريطانيا بشأن المشاكل الاقتصادية المعلقة بين البلدين .

وكانت بريطانيا هى التى طلبت فتح الباب بأعجب طريقة يطلب بها فتح الباب فى أية مفاوضات .

وهناك من يتصور أن الهند لعبت دور الوسيط — مثلا — فى فتح الباب الأول للمحادثات الاقتصادية بين مصر وبريطانيا ، والواقع أن بريطانيا هى التى طلبت ومن غير انتظار لوساطة فتح الباب ، فجأة من غير تمهيد ولا مقدمات تلقى البنك الأهلى المصرى ، برقية مفتوحة بامضاء محافظ بنك انجلترا .

— « هل مصر مستعدة لقبول الاسترلينى ، سدادا لرسوم مرور السفن البريطانية فى القناة ، اذا كان الاستعداد متوافرا ، فهل لديكم ما يمنع من أن يجتمع وفد يمثل وجهة النظر البريطانية ، ووفد يمثل وجهة النظر المصرية لوضع التفاصيل ؟ » .

وأحست مصر بالحرج الذى لابد عانته بريطانيا ، وهى تضغط على نفسها ، وتقبل الأمر الواقع على مرارته — بالنسبة لها — وتتصل مباشرة بها .

أحست مصر بهذا الحرج ، ولم يكن الأمر بالنسبة لها ، أمر شماتة أو انتقام ، وردت مصر — فى كرمها التقليدى — تقول :

— انها تقبل الدفع بالاسترلينى — وتقبل لقاء وفدين لوضع التفاصيل .

وبدأت الاجتماعات ، التى ما زالت دائرة فى روما حتى هذه الأيام .

وكان سبب تعثر المفاوضات طوال هذه المدة خفيا أكثر منه ظاهرا ، صادرا عن المشاعر أكثر منه صادرا عن المشاكل .

ان بريطانيا أحست بكرم مصر وهى تفتح أمامها الباب بعد كل الذى حدث .

وصعب على بريطانيا أن تدخل .. وطال وقوفها على الباب بين الدخول والخروج .

لا هى قادرة على الكبرياء ، فتصر وتعاند .

ولا هى قادرة على تقبل الصفح ، فتطوى الماضى وتتطلع الى يوم جديد .

هو بعينه : التردد فى اغتنام الفرص .

٤ — والذى لا جدال فيه هو أن عودة علاقات اقتصادية بين مصر وبريطانيا هو فى صالح بريطانيا أكثر منه فى صالح مصر .

ان الأموال البريطانية — تحت الحراسة فى مصر — تقارب مائة مليون جنيه .

والقاعدة البريطانية السابقة فى السويس انتهى أمرها باعتبارها غنائم حرب ، أو تعويضات حرب .

والأموال المصرية المجمدة فى بريطانيا تقارب ٨٠ مليون جنيه.

ومن ناحية أخرى فان الميزان التجارى بين مصر وبريطانيا هو فى صالح بريطانيا .

فمصر تشترى من بريطانيا — أو كانت — بما قيمته ٢٦ مليون جنيه .

وبريطانيا تشترى من مصر — أو كانت — بما قيمته ٥ ملايين جنيه .

أى أن الفارق لحساب بريطانيا كل عام هو : ٢١ مليون جنيه.

فمن الذى يتحمل عقوبة التأخير فى تسوية الموقف ..؟

ان بريطانيا — كذلك تقول الشواهد فى روما — هى التى تؤخر .

وبريطانيا هى التى تتحمل عقوبة التأخير .

هو بعينه : العقاب للنفس .

٥ — والذى كان يتابع الصحف البريطانية ، أيام كانت الملكة اليزابيث ، تزور الولايات المتحدة منذ أسابيع كان الذهول يتملكه.

كانت العناوين وقتها ، حتى فى الصحف المحافظة العريقة المتزمتة تشهق كما يلى :

« لقد قابلوا الملكة بحماسة » !

« لقد صفقوا لاليزابيث » !

« لقد قابلوها كملكة » !

كانت العناوين — كما قلت — تشهق ، شهقة العجب ، كأنما كان المتوقع أن تقابل اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا ، فى زيارتها

لأمريكا ، من غير حماسة ، ومن غير تصفيق ، وكأنما كان المتوقع أن تقابل وكأنها لم تعد ملكة !

هو بعينه : الخوف من الاتصال بالناس !

٦ — وحين فشل القمر الصناعى الأمريكى كانت الفرحة تلعلع فى بريطانيا .

ان روسيا — العدو — أو كذلك مفروض — قابلت الفشل الأمريكى ، بهدوء ظاهر ، وأمسكت أعصابها وقالت فى عقل الواثق من نفسه ، قالت بلسان خروشتشيف :

« اذا فشلت أمريكا فى قمرها الصناعى الأول ، فسوف تنجح على أى حال فى قمرها الثانى ، والمسألة مسألة وقت ومحاولة » .

أما بريطانيا فان وقع الفشل الأمريكى كان — كما قلت — يلعلع ، كالزغاريد الرنانة المجلجلة . وبدت فى لهجة قادة الرأى العام البريطانى وهم يتحدثون عن الفشل الأمريكى نبرات عجيبة..

نبرات مرتاحة ، سعيدة ، شامتة .

ومضت بريطانيا فى غمرة ارتياحها ، وسعادتها ، وشماتتها ، تختار للقمر الأمريكى الفاشل أوصافا ساخرة .. قاتلة .

كان القمر الروسى ينطق باللغة الروسية ، « سبوتنيك » .

وحلا للصحف البريطانية أن تطلق على القمر الأمريكى لفظ « سبوفنيك » تقليدا لصوت الفحيح الذى صدر عنه قبل أن يسقط على الأرض شعلة برتقالية اللون ما لبثت أن تحولت الى رماد خامد !

وحدث نفس الشيء ، حين تجلى بعد معركة مشروع ايزنهاور، أن المشروع الجديد ، لم يكن أسعد حظا من المحاولة السابقة عليه: حلف بغداد ، وكانت دلائل فشل السياسة الأمريكية تقابل بالمزيد من دلائل البشر والحبور والرضا فى بريطانيا .

بل تجلى بوضوح أن بريطانيا تتمنى للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، فشلا جديدا كل يوم ، يلحق بفشل اليوم الذى سبق .

وكان يبدو أن بريطانيا تجد عزاء غامضا ، لشعور غامض فى أعماقها ، لكل صعوبة جديدة تقفز من الظلام فجأة لتعترض تنفيذ الخطط الأمريكية فى الشرق الأوسط .

وهذه بعينها هى الرغبة فى تعذيب الغير ، واكتشاف اللذة فى هذا التعذيب !

٧ — وظاهرة أخرى أشد عجبا .

نغمة تكرر ترديدها فى المحافل البريطانية ، فى البرلمان ، فى أوساط الأحزاب ، فى الصحف :

« يجب أن نواجه الواقع ، اننا لم نعد دولة كبرى » .

وروى لى صديق عربى ، اتيح له أخيرا أن يتحدث مع وزير بريطانى بارز ، ان الوزير البريطانى قال فى معرض حديث معه :

« اننا نعيد تنظيم أوضاعنا .

« اننا ندرك أن مستقبلنا السياسى ليس عريض الآفاق .

« والذى نريد أن نصونه الآن هو مستقبلنا التجارى .

« اننا لم نعد نريد امبراطورية ، وكل الذى نريده الآن أن نصبح دولة تجارية بحرية مثل النرويج أو السويد .

« اننا نحس أن الدنيا تغيرت » .

وفى معرض الحديث عن السباق على فضـــاء الكون ، بين الاتحاد السوفييتى ، وبين الولايات المتحدة تكررت فى الصحف البريطانية عبارات :

« اننا دولة تابعة » .

« يجب أن نعرف أننا أصبحنا دولة من الدرجة الثانية » .

«ان التسابق على الفضاء من حق الكبار وحدهم ولسنا منهم».

وهى بعينهـا الرغبـة فى عذاب النفس ، والعثور على اللذة فى هذا العذاب !

سبعة أعراض فى عقدة أوديب فى علم النفس .

والأدلة على السبعة متوافرة فى السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط .

وهل ستشفى بريطانيا يوما من عقـــدة أوديب التى ملكت روحها ؟

واذا شفيت بريطانيا فهل ستعود الى ما كانت عليه قبل ليلة الخطيئة .. ليلة « أحرم الحرام » مع اسرائيل .

هل ستعود بريطانيا الى العقدة الأخرى التى كانت تركبها قبل عقدة أوديب ؟

قبل عقـــدة أوديب كانت بريطانيا ـ بعد تجـارب تاريخ استعمارى طويل وحافل ـ فريسة لعقدة أخرى ـ من علم النفس أيضا ـ هى « مركب الزيادة » تمييزا لها عن « مركب النقص » .

ولقد كانت « عقدة مركب الزيادة » هى التى أوصلت بريطانيا الى ليلة الخطيئة .

كانت بريطانيا تحت تأثير « عقدة مركب الزيادة » تخوض فى بحر بأكمله .. أسمه بحر الغرور !

كانت تظن أنها تعرف الشرق الأوسط على أطراف أصابعها .

وكان الشىء الذى تجهله بريطانيا من أمور هذا الشرق ، شيئا لم يخلق بعد !

ولما بدأت حقائق الواقع تصدم أوهام الغرور .

فقدت بريطانيا أعصابها .

فى مصر مثلا كانت بريطانيا تعتبر أن الكولونيل « جولبرن » ملحقها العسكرى سنة ١٩٥٢ يعرف كل شىء فى مصر .

كان يقابل بعض الباشوات ، ويغمز بعينيه لبعض رجـال الأحزاب ، ويدعو الى بيته جمـاعات من قواد الجيش فى ذلك الوقت .

وكان جولبرن فى أجازة ، فى اسكتلندا .

وقامت ثورة ٢٣ يوليو .

ومساء يوم ٢٦ يوليو ، بعد أن كان فاروق رحل ، هبطت طائرة فى مطار فايد ، ونزل منها « الكولونيل جولبرن » لا يكاد

يصدق أن الذى ترامت اليه أخباره ، وقطع أجازته وهرول الى مصر ليتقصى أمره ، قد وقع فعلا .

كيف ، وهو لم يكن يعرف ؟

وما دام لا يعرف ، فان الذى وقع ، لم يقع .! أو هو شىء لا يساوى أن تعيره الامبراطورية العظيمة شيئا كبيرا من اهتمامها.

هكذا لم تدرك بريطانيا منذ الدقيقة الأولى أن الذى حدث فى مصر « ثورة » .

وفى الأردن مثلا كانت بريطـانيا تعتبر أن الجنرال جلوب يعرف كل شىء عن الأردن !

كان يقابل الملكة زين ، ويقابل باشوات الأردن .

وكان يعرف زعماء العشائر بأسمائهم ويتابع أنسابهم .

وكان يجلس مع البدو يأكل الفتة بأصابعه ، ويردد آيات من القرآن بطرف لسانه المعووج .

وكان جلوب فى الأردن ذات مساء .

وأصبح الصباح ووجد جلوب نفسه خارج الأردن .

وعندما وصل جلوب الى لندن مطرودا من عمـان لم يكن يصدق ما وقع .

وكيف يقع ، وهو لم يكن يعرف ؟

وما دام لم يعرف ، فان الذى وقع ، لم يقع !!

وهكذا لم تدرك بريطانيا منذ الدقيقة الأولى أن « روحا »

جديدة حلت فى الأردن ، وان الروح الجديدة لا يمكن أن تكون من صناعة ملك ، وانما هى من طبيعة شعب !

وفى البحرين مثلا كانت بريطانيا تعتبر أن السير تشارلس بلجريف يعرف كل شىء عن البحرين .

كان بلجريف يعرف التجار ، ويعرف الشيوخ .

وكان بلجريف يملك السلطة كلها والقوة كلها .

وذات يوم وصل سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا .. بريطانيا العظمى ، فى زيارة رسمية سريعة قصيرة الى البحرين !

واذا سلوين لويد يلقى ما لم يخطر لأحد على بال .

يلقى سيلا من الحجارة فى انتظاره ، يرجمه ، وينهال على سيارته .

واضطر وزير خارجية بريطانيا العظمى أن يهرب الى داخل بيت على الطريق .

ثم ينتظر ساعات حتى يتمكن البوليس — بالرصاص — من أن يفرق المظاهرات ، التى لقيته بالحجارة !

وسافر سلوين لويد لفوره من البحرين ، وبلجريف لا يصدق أن وزير خارجية بريطانيا العظمى قد ضرب بالطوب فى البحرين .

أبدا .. ذلك لم يقع .

وكيف يقع ، وهو لم يكن يعرف ؟

وما دام لم يعرف فان الذى وقع لم يقع — !! —

وهكذا أيضا لم تدرك بريطانيا منذ الدقيقة الأولى أن « فكرة » جديدة قد تحركت فى البحرين ، وأن الفكرة الجديدة ليست من وحى مؤامرة .

وهكذا لم تتصور بريطانيا أن الذى وقع فى القاهرة ، على غير علم من جولبرن ، والذى وقع فى عمان على غير علم من جلوب ، والذى وقع فى البحرين على غير علم من بلجريف .

والذى وقع فى غير القاهرة ، وغير عمان ، وغير البحرين ولم يعرف به خبراء بريطانيا . ليس مجموعة من المصادفات ، وانما هو قوة جديدة صاعدة ، اسمها القومية العربية .

وفى ظل هذا الجهل ، وفى ضبابه ، كان سهلا على أنتونى ايدن ليلة ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ ، أن يجلس فى صالون بيته فى ١٠ داوننج ستريت ، مقر رياسة الوزارة البريطانية ، يجلس بملابس السهرة السوداء الأنيقة ، وفى يده سيجار فخم بعد العشاء ، ثم يلتفت الى ضيفيه فى تلك الليلة ، فيصل الثانى ملك العراق ، ونورى السعيد رئيس وزرائها ، ثم يقول لهما معلقا على نبأ تأميم مصر لشركة قناة السويس ، وكان النبأ قد وصل اليهم وهم على مائدة العشاء .. يقول لهما بكبرياء :

— ان بريطانيا قررت أن تضرب مصر وتسقط جمال عبد الناصر !

وكان ايدن يتصور أنه ينطق بارادة القدر !

ولكن ارادة القدر يومها كانت عكس ما نطق به .

لقد وقع شيء ، لم يكن ايدن يستطيع أن يتصور وقوعه .

وفى هـذه المرة كان — على خـلاف مع كل مرة قبلها — لايستطيع أن ينكر أو يتجاهل هذا الوجود .

ان محاولة ضرب مصر ، انتهت بضرب بريطانيا .

ومحاولة خلع جمال عبد الناصر ، انتهت بخلع انتونى ايدن .

وتحطم مركب الزيادة ، وبدد الأمر الواقع ، ذلك الضباب الجاهل المنفوش بالكبرياء ..

ولكن كانت هناك « العقدة » الجديدة .

والرأى العام البريطانى اليوم يبحث عن زعيم يقـوده فى الأزمة .

وبعض الصحف تنادى بعودة الأسـد العجوز ، ونستون تشرشل .

ولكن بريطانيا ليست فى حاجة الى زعيم .. انها فى حاجة الى طبيب .

وليست فى حاجة الى ونستون تشرشل ..

بقدر حاجتها الى « سيجموند فرويد » .. خالق علم النفس وأستاذه ورائده .

وكان أوديب ملكا ، فأسطورة ، فمأساة ، ثم عقدة .

وكانت بريطانيا امبراطورية ، فأسطورة ، فمأساة ، ثم هى اليوم عقدة !

العقدة السابعة

عقدة الخوف

أو

دور روسيا فى هذه العقد

رسالة ـ عصفوران بحجر ـ هل هى قداسة
لا تمس ـ الاستعمار الغربى وليس روسيا ـ
لم نكن الاقوى ـ الواقع والغيب ـ الحقوا
روسيا ـ ماذا حدث فى المجر ـ الفرق بين
جومولكا وبين ناجى ـ اوامر زوكوف ـ أين
بدات صفقة الأسلحة ـ أول لقاء بين شوين‌لاى
وجمال عبد الناصر ـ مصلحة متبادلة ـ
لا ملائكة ولا سواد عيون .

مظروف أنيق ، وخطاب فى داخله يعلوه شعار عريق •

ورسالة شائقة ممتعة •

وامضـــاء ، لرئيس عربى ، رئيس لاحـــدى الحكومات العربية •

والخطاب تسلمته أمس ، وموضوع الخطاب هو : « هـــذه المقالات التى اكتبها عن الموقف فى الشرق الأوسط اليوم » •

وفى الخطاب عبارات تقول ، يقول فيها الرئيس العربى ، مرسل الخطاب :

((لقد تابعت باهتمام هـــذه السلسلة التى تنشرها عن العقد النفســـية التى تحكم الشرق الأوسط ••• قرات ما كتبته عن ((عقدة الذنب)) عند حكام لبنان ، وعن عقد الذنب عند حكام بلاد عربية أخرى غير لبنان ، حكام بدأوا الآن يفيقون ويحسون بالحرج الذى تورطوا فيه ، وراء خطط أو رغبات أو امانى السياسة الأمريكية ـ سمها كما تشاء !

وقرأت ماكتبته عن العقد النفسية عند دالاس ، والمسلك الوعر الذى تدحرجت السياسة الأمريكية اليه على عهده .

وكذلك قرأت « عقدة أوديب » الذى خرج من الأسطورة الأغريقية قبل الميلاد ، ليتقمص روح بريطانيا بعد عشرين قرنا من الميلاد .

وهذا كله طيب ، وحسن .

ولقد أكون معك — ان لم أكن فى كل ما قلت — ففى كثير منه على الأقل . ويدخل فى ذلك — لكى أؤكد لك انصافى — هذا الذى تعرضت فيه لبلادى فيما ورد فى مقالاتك !

ولكن يتبقى شىء ، اذا كنت أيضا تريد أن تؤكد انصافك — واذا كنت فيما تقول ، تصدر عن ميزان محايد ، لا يميل مع الهوى ولا ينحاز !

هذا الشىء هو : هل سيجىء دور روسيا فى «عقدك النفسية» التى تحكم الشرق الأوسط ، أم أن روسيا أصبحت فى هذا الشرق الأوسط « تابو » — أى قداسة لا تمس ؟!

لا أريد أن أورطك فيما قد يحرجك .

ولكن — وكما وافقتك على كثير مما قلته أنت حتى الآن ، لعلك توافقنى على هذا القليل الذى سأقوله لك الآن :

« ان روسيا تلعب دورا بارزا فى الشرق الأوسط ، ولا أظنك

سوف تقول لى ان روسيا مبرأة من « العقد » مشفية سلفا من جميع مسبباتها » .

اذا صدق ذلك ، أفلا يحق لى ولغيرى أن يتصور أن روسيا أصبحت « تابو » قداسة لا تمس ؟

واذا صدق ذلك ، أفلا يحق لى ولغيرى ، أن يتصور أن ميزان الحياد فى تقديرك قد مال ، وبالتالى أن « عدم الانحياز » الذى طالما تردد ذكره فى مقالاتك ليس فى حقيقته وواقع أمره الا « انحيازا » .. انحيازا لروسيا ؟! » .

انتهى خطاب الرئيس العربى !

فى وقته تماما جاءنى هذا الخطاب .

لقد كان حسابى أن يكون هذا المقال — السابع فى السلسلة — عن دور روسيا فى الشرق الأوسط اليوم .

ولكنى كنت فى حيرة من النقطة التى أبدأ منها الحديث ، والطريق الذى أسلكه بعد البداية ، والنتيجة التى أصل اليها قبل أن ألقى القلم من يدى وأطوى الصفحات .

وعندما وصلت الى السطر الأخير فى خطاب الرئيس العربى ، كان السطر الأول فى مقالى — على طرف لسانى .

لقد كتب لى خطابا .. وسأرد عليه .

وهما عصفوران بحجر .

يقرأ هو ما سوف أكتبه : ردا على خطابه ، ويقرأه الناس معه : مقالا فى السلسلة .

وهذا هو الخطاب .. الخطاب المقال !

القاهرة فى ٢١ يناير سنة ١٩٥٨ :

عزيزى الرئيس .

لعلك ستغفر لى هذه الحفنة من الأخطاء .

خطأ اننى سمحت لنفسى أن أنشر رسالتك ، وخطأ اننى سمحت لنفسى أن أبعث اليك الرد عليها ، لا داخل مظروف مختوم كما كان البروتوكول يحتم ، وانما على صفحات جريدة يطالعها فى نفس الوقت مئات الألوف .

ولعل من أعذارى فى طلب الغفران ، اننى لم أنشر اسمك ، وأعدك اننى لن أنشره الا اذا أذنت لى صراحة فى ذلك النشر ، ويا ليتك تفعل .

ولعل دافعى الى النشر — هو أيضا — من أعذارى فى طلب الغفران — ذلك أن الذى تقوله أنت ، يقوله غيرك ، فهى اذن قضية عامة تستحق أن تناقش لا بالهمس ، ولا بالوشوشة ، ولكن بصوت واضح مسموع ، والا كنا نحن أيضا ، أنت وأنا ، ضحايا عقدة نفسية ، يخبئها الخوف ، فى قلوب الضعفاء !

والآن اذا كنت قد غفرت فاسمح لى أن أدخل فى موضوع ردى على خطابك ، واذا لم تكن قد غفرت ، فلا تعتبر هذا ردا ، واعتبره مجرد مقال !

ان سياسة روسيا فى الشرق الأوسط — ياعزيزى الرئيس — ليست « تابو » ، أى ليست قداسة لا ينبغى أن تمس .

ولو أننا تخيلنا ذلك لحظة ، لكنا بذلك نتخلى عن أنبل حق يضمنه لنا عدم الانحياز .. هذا الحق النبيل هو الحرية فى المجال الدولى .

ان المعنى العملى لعدم الانحياز هو اننا لا نربط أنفسنا بكتلة من الكتل المتصارعة ، وانما نقرر بأنفسنا فى كل مشكلة تعرض أمامنا ، أين هو الحق كما نراه ، وأين هو الباطل كما نراه .

ولقد نخطىء فى قرارنا ، ولسنا ندعى العصمة فى كل قرار ، ولكن المؤكد أن ما يصدر عنا هو استجابة طبيعية لضمائرنا ، وليس استجابة طيعة لأمر أو وحى من خارج نفوسنا .

فلو تخيلنا أن روسيا قداسة لا تمس اذن لكان ذلك تخليا عن رأينا، عن ضميرنا ، عن حريتنا .

ولو أن ذلك كان يجوز ، فما الذى كان أضنى قلوبنا على كل هذا الذى تحملنا — ونتحمله — لنتمرد ونثور على « القداسة » التى كانت لدول الاستعمار الغربى فى بلادنا .

ان الذى يخضع مرة .. يخضع كل مرة ، والذى يرضى أن يكون ذيلا ، لا يهمه أن يكون ذيلا لأسد — الأسد البريطانى — أو ذيلا لدب — الدب الروسى .

هذا كلام واضح ومنطقى ، وأظنك — ياعزيزى الرئيس — لا تخالفنى فيه ؟!

اذا وصلنا الى هذه النقطة — ياعزيزى الرئيس — فدعنى أتساءل :

— ما الذى جعلك تتصور أن سياسة روسيا فى الشرق الأوسط « تابو » أى قداسة لا تمس ؟!

الرد على التساؤل هو :

— لأننا لا نقاوم الا سياسة الغرب ، ولا نهاجم الا سياسة الغرب ، ولا نفضح الا سياسة الغرب !

أليس كذلك ؟ أليس ذلك ما كان يمكن أن تقوله ؟ أنا أقوله معك . وهو صحيح : نحن لا نقاوم الا سياسة الغرب . ولا نهاجم الا سياسة الغرب ، ولا نفضح الا سياسة الغرب .

ولكن دعنى أسألك :

— لماذا نفعل ذلك ؟

دعنى أرد ، ولا أظن أننا سنختلف على هذا الرد .

كان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى يحتل بلادنا ، وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح ، لنجلى المحتل الغاصب عن بلادنا .

وكان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى علق المشانق وفتح السجون لأبطالنا . وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح لنحقق الأهداف التى حارب من أجلها الأبطال .

وكان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى استولى على خيرات بلادنا — يستوى فى ذلك معابرها المائية كقناة السويس أو كنوزها الدفينة فى باطن الأرض كمنابع البترول — وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح — على الأقل

لكى نحصل على بعض حقنا اذا عز علينا أن نحصل على كل ما هو من حقنا .

وكان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى فرض علينا عروش الطغيان تستبد بنا وتتحكم فى مصائرنا ، وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح — لكى تندك العروش الطاغية ، أو ليستقيم أمرها فتدرك أن لا حياة لها اذا لم تسند قوائمها الشعوب .

وكان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى حاول أن يفرض علينا الضعف حين حبس عنا السلاح ، وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح — لكى نوفر لأنفسنا ما نستطيع به أن ندافع عن بلادنا .

وكان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى سير الينا الأساطيل ، وألقى القنابل على مدننا ، وأسقط جنود الباراشوت طليعة تمهد لاحتلال مجرم سفاك دماء ، وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح — كى لا تعود السلاسل والأغلال فتربطنا سبعين سنة جديدة .. كالسنين السبعين الأخرى !

ثم كان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى حاول تجويعنا ، وكان واجبنا أن نقاوم ونهاجم ونفضح — حتى نجد الطعام .. نجد الخبز .. نجد حبات القمح .

ثم كان الاستعمار الغربى — وليس روسيا — هو الذى تآمر علينا ، وبذل قصارى جهده لتمزيق وحدتنا ، وكان واجبنا

أن نقاوم ونهاجم ونفضح ، حتى تحبط المؤامـرة وحتى تبقى وحدتنا .. سندا لنا وذخرا .

فهل كان يمكن — يا عزيزى الرئيس — أن لا نقاوم ونهاجم ونفضح ؟

وهل كان يمكن — يا عزيزى الرئيس — أن نقاوم ونهاجم ونفضح غير الاستعمار الغربى ؟!

لقد كنا فى كل ما قمنا به ندافع عن أنفسنا .

لم يكن كل ما قمنا به « فعل » وانما كان « رد فعل » .

ان زمام المبادأة لم يكن فى أيدينا ، ان زمام المبادأة دائما فى يد الأقوى ، ولسنا « الأقوى » فى صراعنا مع الاستعمار ، ولكن ليس معنى أننا لسنا « الأقوى » ان التسليم محتوم علينا .

ولقد أثبتت التجارب أن النصر ليس دائما « للأقوى » فان للنصر عوامل أخرى غير مجرد القوة المادية ، وذلك بحث آخر على كل حال ، ودعنا نعد الى موضوعنا الأصيل !

ولقد تسـألنى — يا عزيزى الرئيس — اذا كان ذلك هو موقف الاستعمار الغربى منا ، فهل أصبحت روسيا ملاكا يبشر بالسلام والخير للبشر جميعا ؟

وأقول لك على الفور :

— ان البشر بشر ، ولن يصبح البشر ملائكة ، هذا رأيى !

ولقد تقول لى بعدها :

— اذن حدثنا ، عن مطامع البشر ، عن شهوات البشر ، فى سياسة روسيا فى الشرق الأوسط .

اذا قلت لى ذلك فسوف يكون لى عنـدك — يا عزيزى الرئيس — طلب .

سوف أطلب منك — ياعزيزى الرئيس — أن تترك مقعدك العالى الكبير ، وتجىء لتجلس على هذا المقعد البسيط الصغير الذى أجلس عليه أنا .

تعال هنا مكانى ، على مكتبى ، وأمامك ورقى ، وأمسك قلمى ، واكتب عن مطامع روسيا وشهواتها فى الشرق الأوسط .

لا تحدثنا عن النوايا ، فان النوايا كلها فى مكنون الغيب .

ولسوف يبدو الأمر مضحكا حقا ، اذا ذهبنا تتقصى النوايا ، فى أعماق روسيا ، هذا بينما الأفعال ، القائمة فعلا ، تمسك بتلابيب الاستعمار الغربى .. وتدينه .

سوف يبدو الأمر مضحكا ، أن ننسى جرائم القتل ، الواقعة عملا ، فى الجزائر ، وفى المحميات ، وفى العراق ، وفى الأردن ، جرائم قتل الأفراد وجرائم قتل الشعوب لكى نصيح :

— آه .. الحقوا واضبطوا .. ان روسيا تفكر فى حادثة نشل؟!

وكذلك لا تحدثنا عما يجرى خارج أوطاننا ، فان الرأى فيه يختلف ، والنقاش يطول .

وكذلك سوف يبدو الأمر مضحكا حقا ، اذا نسينا الذى

حدث منذ أكثر قليلا من عام فى بور سعيد ، لكى نذكر الذى حدث منذ أكثر من عام فى بودابست عاصمة المجر !

ومع ذلك فان الرأى يختلف والحديث يطول فى هذا الذى حدث فى المجر .

ولقد مررت بنفسى فى بودابست منذ شهرين ، وبضميرى أحسست أنه اذا كان فى بودابست غضبة من روسيا ، فان الغضبة من أمريكا أشد وأمر .

لقد تصادمت أمريكا مع روسيا فى المجر .

وقضت الصدفة وسوء الحظ أن يكون شعب المجر الوديع فى منطقة الصدام ، وكاد التصادم بين الكتلتين أن يعصره ويسحقه.

لقد قامت فى بودابست حركة تطالب بمزيد من الحرية ، تماما كما حدث فى بولندا تحت قيادة جومولكا .

فلماذا نجحت حركة المطالبة بمزيد من الحرية فى وارسو ، وانتهت الحركة المماثلة لها فى بودابست الى المأساة المحزنة التى انتهت اليها .

كانت روسيا جريا على سياستها الجديدة على استعداد لأن تعطى .

أعطت فى بولندا .

نقلت الماريشـــال الروسى روكوسفسكى الذى كان يحكم بولندا فعلا من منصب وزير الدفاع .

سحبت القوات الروسية من وارسو .

فتحت باب السجن ليخرج منه « جومولكا » ليجلس على مقعد رئيس الوزراء وكانت الحركة فى بولندا عاقلة .

كانت « تشد » من يد روسيا بقدر ما كانت روسيا تستطيع أن تعطى .

وهكذا حققت معركة الحرية فى بولندا أهدافها .

أما فى المجر فاختلف الأمر .

حاولت أمريكا أن تستغل حركة الحرية فى الحرب الباردة بينها وبين روسيا .

وبدأ راديو « أوربا الحرة » الذى توجهه أمريكا على شرق أوربا ، يثير ويهيج ، وبدأت المخابرات الأمريكية تصرف، وتنفق .

ولم يكن « ناجى » الذى تصدى لقيادة حركة الحرية فى المجر فى مثل اتزان جومولكا وتقديره للموقف .

وهكذا حاول أن « يشد » من يد روسيا بأكثر مما كانت روسيا تستطيع أن تعطى وكانت الكارثة .

قامت المذابح فى الشوارع .

وراديو أوربا الحرة يصور الأمر كما لو كان جنود الباراشوت الأمريكان سينزلون بعد عشر دقائق من السماء لمساعدة الثوار .

وفقد « ناجى » أعصابه وجرى الى محطة الاذاعة يصرخ باللغة الانجليزية :

— النجدة .. النجدة !

وانتهزت بريطانيا الفرصة وبدأت عملياتها العسكرية فى السويس .. بل فى هذه الفرصة عرضت بريطانيا على الاتحاد السوفييتى رسميا أن تحترم مصالحه فى المجر ، اذا احترم مصالحها فىّ السويس !! هكذا .

وكان لروسيا رأى آخر فى الموقف فى الشرق الأوسط .

وهكذا وجه الماريشال زوكوف دباباته لقمع الثورة فى بودابست .

وكانت الأوامر لديه أن يفرغ من ذلك فى ٢٤ ساعة ، حتى تستعيد روسيا قدرتها على الحركة فى الشرق الأوسط .

وكتب على شعب المجر الوديع أن يدفع ثمن الحرب الباردة كاملا .. وأن يشارك فى جزء من ثمن العدوان على مصر .

ذلك ما حدث فى المجر .. كما رأيته بعينى فى بودابست .

والرأى فيه يختلف والحديث يطول .

ومع ذلك فلنجعل حديثنا داخل حدودنا .

واذن — فخذ مكانى ، ياعزيزى الرئيس — واكتب عن مطامع روسيا فى الشرق الأوسط وعن شهواتها ، على أساس ما اتفقنا عليه .

• أن يكون حديثك عن الواقع فعلا .. لا عن الغيب .

• أن يكون حديثك داخل حدود الشرق الأوسط ... حتى يكون عن التجربة ، وليس نقلا عن الحواديت والحكايات !

أبدأ — ياعزيزى الرئيس — واكتب .

ان أول تجربة لنا مع روسيا بدأت فى رانجون عاصمة بورما.
وآخر تجربة لنا مع روسيا لا تزال دائرة حتى الآن فى موسكو.
أول تجربة هى السلاح .
وآخر تجربة هى : اتفاق التعاون الصناعى .

أنت طبعا — يا عزيزى الرئيس — بحكم اطلاعك تعرف أن الفصل الأول فى صفقة الأسلحة التى اشترتها مصر من روسيا — بدأ فى قصر الحاكم العام فى رانجون ليلة ١٥ أبريل سنة ١٩٥٥ .

فى تلك الليلة لم يكن القصر الكبير العتيق يدرك أنه يشهد حدثا ضخما فى سياسة الشرق الأوسط ، وانما كانت الحياة فى القصر تدور ، وكان كل شىء كما تعود أن يكون .

كانت الليلة ليلة عيد الماء فى بورما .

وحضر الاحتفال بالعيد فى القصر تلك الليلة ثلاثة ضيوف ، جمال عبد الناصر من مصر ونهرو من الهند وشواين لاى من الصين .

وكانت أول مرة يلتقى فيها عبد الناصر وشواين لاى .

تقابلا فى نفس اليوم فى المطار ، نزل عبد الناصر من الطائرة ، فوجد شواين لاى يستقبله على غير معرفة شخصية بينهما .

كان كلاهما يعرف الآخر سماعا .

ومد شواين لاى يده الى المصرى يقول له :

— اننا نتابع باعجاب كفاحك .

وأمسك جمال عبد الناصر بيد الصينى الممدودة له وقال :

— اننا نتابع الجهود العظيمة التى تبذلونها فى بلادكم .

واتفقا على موعد للقاء فى مساء نفس اليوم ، فى صالون فى الدور الثانى من قصر الحاكم العام فى بورما .

فى هذا الصالون ، فى الدور الثانى ، فى القصر العتيق فى رانجون ، بدأت صفقة الأسلحة .

تقابل الرجلان ، تحادثا فى الموقف العالمى ، فى الشرق الأقصى، والشرق الأوسط ، وكان الشرق الأوسط يعج بالأحداث يومها : حلف بغداد ، الغارة على غـزة ، محاولات مصر لتسليح نفسها لتستطيع مقاومة العدوان بالعدوان .

وقال جمال عبد الناصر أنه يحاول أن يشترى السلاح من أى مكان .

ثم توجه بسؤال مباشر الى شواين لاى :

— هل يبيعنى الروس سلاحا .. لو طلبت منهم .

وقال شواين لاى :

— اذا أذنت لى فاننى أجس لك النبض . وأظنهم لا يمانعون.

وحين جاء « سولود » سفير روسيا فى القاهرة وقتها يبلغ أن روسيا مستعدة لأن تبيع لمصر ما تطلبه من سلاح قال :

« بناء على الحديث الذى دار بين الرئيس جمال عبد الناصر وبين الرئيس شواين لاى تبدى الحكومة الروسـية استعدادها و .. الخ » .

هكذا أول تجربة .

وآخر تجربة حين أبدت روسيا استعدادها أن تتعاون مع مصر تعاونا اقتصاديا فتقدم لها آلات ومصانع فى حدود ما قيمته ٦٢ مليون جنيه .

وما زال وزير الصناعة المصرى فى موسكو يدفع التجربة الى نهايتها العملية ويعود بالمصانع وراءه على السفن !

وبين أول تجربة وآخر تجربة عبرت مياه كثيرة فى نهر العلاقات بين مصر وبين روسيا .

نفذت روسيا ما تعهدت به .

جاء الى مصر خبراء روس أدوا مهمتهم ورحلوا ، لم يحاول أحدهم أن يتجاوز حده .

وجهت روسيا انذارها المشهور وقت عدوان بور سعيد .

باعت روسيا لمصر القمح حين نفذ احتياطيها ورفضت أمريكا أن تبيع لها ما يسد رمقها .

وجهت روسيا انذارها المشهور وقت التربص التركى بسوريا .

واذن — ياعزيزى الرئيس — ما الذى سوف تكتبه :

على ضوء الواقع فعلا — كما اتفقنا .

على ضوء تجربتنا نحن — كما اتفقنا أيضا .

ولقد توجه لى — يا عزيزى الرئيس سؤالا يبدو معقولا .. ومنطقيا فى نفس الوقت :

— ولماذا تفعل روسيا هذا كله .. هل تفعله لسواد عيوننا نحن العرب ؟

لقد اتفقنا انه ليس فى السياسة ملائكة .

ومسألة « سواد العيون » لا تجوز ولا تنطلى على أحد .

واذن فلا بد أن يكون للروس قصد ولا بد لهم من غرض .

أو بمعنى أدق :

— ما هو الثمن الذى تريد روسيا أن تحصل عليه فى مقابل كل هذا الذى تقدمه لنا ؟

هذا — يا عزيزى الرئيس — سؤال ذكى .

أنا معك فى مقدمات السؤال .

ليس فى السياسة ملائكة ، وليس للسياسة عواطف ، بل أنا أمضى الى أكثر من ذلك فأقول انه ليست فى السياسة مبادىء .

ان المبادىء فى السياسة تشبه الأعلام الملونة ، المزركشة بالذهب والفضة التى ترفعها الجيوش المتحاربة فوق رؤوسها لتزيد من قابليتها لسفك الدم .

وانما السياسة مصالح .. هذه هى الحقيقة .

ان الحلفاء لم يقاتلوا هتلر ، دفاعا عن الديمقراطية .

كانت الديمقراطية هى العلم المزركش ..

وأما المصالح فقد كانت هدف الحرب الحقيقى .. المصالح فى المستعمرات !!

وحين تفعل روسيا هذا الذى تفعله لدول الشرق الأوسط العربية فانها تستوحى نفس الاعتبار : المصالح .

ان ماركس لم يوص الشيوعيين بالعرب خيرا ، ولا لينين ترك لهم حقا على روسيا فى وصيته .

وانما كان الأمر .. مصالح .

هى — اذن — يا عزيزى الرئيس — مصلحة تعطى لتأخذ ، وتقبض وتدفع !

ولقد يكون سؤالك بعدها :

— عال .. اتفقنا أو قاربنا الاتفاق .. ان روسيا تعطى فما الذى تتوقع أن تأخذه ، وهى تدفع فما الذى تنتظر أن تقبضه ؟

ولسوف أرد عليك — يا عزيزى الرئيس . فأقول :

— ان روسيا أخذت مقدما ، وقبضت فعلا .

لقد كانت سياسة الغرب ، هى محاصرة روسيا بالأحلاف العسكرية ، وبالقواعد التى تستطيع تدمير كل بقعة من أرضها .

وأنشىء حلف جنوب شرقى آسيا S.E.A.T.O.

وأنشىء حلف الأطلنطى N.A.T.O.

ولم يعد باقيا الا حلف فى الشرق الأوسط بين الحلف الآسيوى، والحلف الأوربى لتتم حلقات الحصار .

ورفضت مصر ..

رفضت لنفسها ، وللمنطقة ، واستجابت شعوب كثيرة ، وتجاوبت مع الموقف الذى وقفته مصر .

ولم يكن رفض مصر ولم يكن موقفها خدمة لروسيا ، فلم يكن بين مصر وروسيا وقتها تقارب أو اتفاق .

بل ان مصر رفضت ، واتخذت موقفها مستوحية مصالحها ، ومصالح المنطقة .

وأولها أن لا تعرض نفسها لحرب لا تملك أسلحتها ، ولمطامع لا تطلبها لنفسها !

ولكن ذلك لا يمنع أن روسيا استفادت من هذا الرفض ومن هذا الموقف .

وفى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى روسيا نفسها ، قال خروشتشيف هذا الأمر صراحة فى نزاعه مع مولوتوف .. قال :

— لا نستطيع أن نقف سلبيين من حركات التحرير فى الشرق الأوسط .

اذا لم تتقدم لمساعدتها ، واذا لم تستطع هذه الحركات أن تصمد ، فسوف تتحول بلاد الشرق الأوسط كلها الى قواعد ، وتصبح شعوبها ، جيوشا يتعين علينا أن نحسب حسابها فى صفوف أعدائنـــا .

وأنا أرى أن تتحرك فى الشرق الأوسط دفاعا عن أنفسنا .

بذلك تقلل عدد القواعد التى ستعمل ضدنا فى وقت الحرب .

وبذلك تقلل عدد الجيوش التى ستساق لقتالنا فى يوم الخطر.

واذن فقد كانت لروسيا — ياعزيزى الرئيس — مصلحة .

ولم تخط روسيا خطواتها الجديدة فى الشرق الأوسط الا عن ادراك لهذه المصلحة ..

كانت لها مصلحة

وكانت لنا مصلحة

هكذا التقينا ، فى مرحلة معينة ، من طريقهم الى ما يريدون ، ومن طريقنا نحن الى ما نريد .

واذن فلا ملائكة ، لا نحن ولا هم .

ولا سواد عيون ، لا نحن ولا هم .

ولقد يتبقى لديك — ياعزيزى الرئيس — سؤال آخر .. وأخـير !

قد تقول لى :

— وماذا عن الشيوعيين المحليين .. هؤلاء الذين ينادون بالولاء لموسكو .

ومن غير تردد سوف يكون ردى عليك :

— ان الذين ينادون بالولاء لسلطة من خارج أوطانهم .. خونة لهذه الأوطان ، مهما كان لون السلطة الأجنبية التى ينادون بالولاء لها .

وهكذا فان الذى يرى أن الكرملين — فى موسكو — هو مصدر الوحى ، لا يقل فى رأيى جرما عن الذين يتلقون هذا الوحى، من البيت الأبيض فى واشـنطن ، ومن البيت رقم ١٠ داوننج ستريت — فى لندن .

كلهم فى الخيانة سواء .

وابحث فى قانون العقوبات فى بلادك — ياعزيزى الرئيس — وضع أصبعك على المادة التى تعاقب خيانة الأوطان ثم طبقها — يا عزيزى الرئيس — كما ترى أن مصالح بلادك تقتضيك .

لم يبق يا عزيزى الرئيس الا أن أشكرك على خطابك لى ، وعلى صحبتك خلال هذا الحديث الطويل ولعلك تكون غفرت

ولك التحية والاحترام .

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

https://twitter.com/kotobmamno3a تصوير

خاتمة

رحلة بين النجوم

كتبوا الى وسألونى :

— هل انتهت السلسلة ؟ سلسلة المقالات ، عن العقد النفسية التى تحكم الشرق الأوسط اليوم ؟

وقلت لهم :

— أجل ، انتهت السلسلة بهذه المقالات السبع ، ولكن ليس معنى ذلك أن العقد نفسها انتهت أو أن المشاكل انتهت !

أن العقد والمشاكل فى الشرق الأوسط ، لا نهاية لهما ، بل أحيانا ما يخيل للمتأمل فى أحوال هذا الشرق ، ان العقد والمشاكل فيه ، تنافسان فى عددهما ، عدد رمال الصحراء .

ومع ذلك ، فبين هذه العقد والمشاكل ، واحدة بالذات تمنيت لو تصدى لها من يبحثها ، ويؤلف عنها كتابا — وانها لتحتاج الى عدة كتب ! — ثم يضع هذا الكتاب على رف فى مكتبة تطورنا — كشعب عربى — ثم يتركه للمستقبل يرى فيه رأيه ، ويصدر عليه حكمه .

لهذه العقدة والمشكلة قصة طويلة ، مثيرة ، أول خطوة فيها سـؤال :

« أين تذهب عائدات البترول التى يحصل عليها العرب ؟ » .

وقبل أن أمضى وراء هذا السؤال ، أضع تحفظا لابد منه ..

هذا التحفظ متصل بهذه البقعة من الوطن العربى — التى أعيش فيها : مصر .

ان مصر لا مطمع لها فى عائدات بترول ، وأقصى مناها أن يبارك الله فى هذه العائدات لأصحابها ، ويزيدها أضعافا مضاعفة .

ان مصر لا مطمع لها لسبب أولى واضح هو أنها ليست فى حاجة الى عائدات البترول العربى ، فان دخلها القومى كل عام يوازى على الأقل الدخل العربى من عائدات البترول كلها مجتمعة.

وسبب ثان واضح أيضـــا هو أن مصر لا تريد ما ليس من حقها ، وهى على ذلك حريصة لدرجة أنه حين كانت الأزمة على أشدها فى مثل هذه الأيام من العام الماضى فى ظروف العـــدوان واحتاجت مصر الى الدولارات ، وكان لدى السعودية منها فائض، أصرت مصر على أن تشترى من السعودية شراء ما كانت تريده يومئذ من الدولارات .

اشترته مصر شراء بالجنيه المصرى وبخصم قدره سبعة فى المائة على قيمة الجنيه ، أى كما لو كانت تشترى الدولارات من سوق حرة تخضع لقانون العرض والطلب كسوق زيوريخ مثلا !

هذا تحفظ لابد منه قبل السؤال ، حتى يكون مفهوما أن السؤال خالص لله ، خالص للعرب كشعب ، وككفاح ، وكمستقبل!

الاجابة على هذا السؤال تبدو وكأنها رحلة بين النجوم .

الأرقام تخيف وتبهر .

احساسى الشخصى وأنا أفكر فيها ، يجعلنى أشعر كما لو كنت

وجدت نفسى فجأة راكبا فى القمر الروسى ، أطوف حول الأرض بسرعة لا تكاد تصدق ، وأعبر القارات والمحيطات فى لمحة عين !

لقد بدأ العرب فى الحصول على دخل منظم من عائدات البترول سنة ١٩٤٨ .

ونحن الآن سنة ١٩٥٨ .. عشر سنوات .

وسنة ١٩٥٣ هى نصف المرحلة — قبلها خمس سنوات وبعدها خمس سنوات — فهى على هذا الأساس متوسط ما قبلها وما بعدها ، وعليها يمكن أن يوضع القياس والحساب ..

فى سنة ١٩٥٣ كان البترول الذى استخرج من باطن الأرض العربية هو بمعدل ٢ر٤٢٤ر٣٠٠ برميل من الزيت الخام كل يوم .

أى أن الزيت الخام الذى استخرج من باطن الأرض العربية طوال سنة ١٩٥٣ — سنة القياس لما قبلها وما بعدها — هو : ٨٧٤ر٨٦٩ر٥٠٠ برميل .

وسعر البترول الخام فى السوق العالمية هو ما يقرب من جنيه استرلينى للطن الواحد .. أى أن ثمن البيع الكامل لبترول العرب ، سنة ١٩٥٣ ، وفى كل سنة قبلها وبعدها من سنة ١٩٤٨ حتى اليوم هو : ٨٧٤ر٨٦٩ر٥٠٠ .

فاذا قدرنا أن المصاريف ، مصاريف الانتاج ، والنقل والتسويق هى : ٢٧٤ر٨٦٩ر٥٠٠ جنيه استرلينى ، وهى لا يمكن بحال من الأحوال أن تصل الى هذا الرقم ، لكان صافى ربح البترول العربى هو ٦٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه فى السنة الواحدة .

ومعنى ذلك أن دخل العرب من هذا الربح ، على أساس المناصفة ، وهو الأساس السائد الآن فى كل اتفاقيات الزيت العربية هو : ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ أى ثلاثمائة مليون جنيه فى كل سنة .

ومعنى ذلك أيضا ، أنه منذ سنة ١٩٤٨ ، حصل العرب ، كل العرب ، من بترولهم على دخل صاف قدره ثلاثة آلاف مليون جنيه.

ونعود الى السؤال :

— أين تذهب عائدات البترول التى يحصل عليها العرب ؟

أين ذهب مبلغ ثلاثة آلاف مليون جنيه ، حصل عليها العرب ، خلال السنوات العشر الماضية ؟

سؤال يبعث الدوار الى الرؤوس ، على الأقل يبعث الدوار الى رأسى أنا !

ان مجموع المبالغ التى صرفت على التعليم والصحة ، وعلى رفع مستوى المعيشة والانتاج ، وعلى الصناعة والمواصلات ، فى البلاد العربية المنتجة للبترول لا يزيد على مائة مليون جنيه .

مائة مليون جنيه لا تزيد ، تدخل فيها أيضا ، السمسرات ، والعمولات ، والرشاوى والاختلاسات — ! — التى تمت خلال تنفيذ هذه المشروعات ، والعراق فى هذا النطاق نفسه ، رغم كل الضجة التى قامت فى الصحف الأمريكية حول مشروع وادى الثرثار ، ورغم كل الصور التى نشرت لجلالة الملك فيصل ملك العراق وهو يفتح طرقا لا يزيد طول الواحد منها على بضع عشرات من الكيلو مترات — ويبدو فيها جلالته وهو يقص شريطا من حرير بمقص من ذهب !

واذن فالباقى كله ٢٩٠٠ مليون جنيه .

أين ذهبت ؟

أين ذهبت هذه الملايين .. ألوف الملايين ؟

أين الجيوش التى خلقتها ؟

أين الصناعات التى أوجدتها ؟

أين مستوى المعيشة الذى رفعته ؟

لقد خلقت جيوشا .. وأوجدت صناعات .. ورفعت مستوى معيشة .. ولكن أى جيوش ، وأى صناعات ، وأى مستوى معيشة ؟

ان العرب ، كل العرب ، لن يستطيعوا أن يخوضوا معركتهم الكبرى من أجل الحياة ، بجيوش « الفاتنات » فى بيروت ، وفى القاهرة ، وفى باريس ، ونيويورك !

والعرب ، كل العرب ، لن يستطيعوا حل المشاكل المروعة التى تواجههم ، بهذه الصناعات الجديدة ، المتصلة كلها بالفتنة اليقظى!

والقصور الشامخة ، والشقق الأنيقة فى عواصم الدنيا ، والسيارات الفارهة بألوان الماس والياقوت والزمرد ، لا تكفى كلها لكى يعيش فيها ملايين العرب ، حياتهم التى يحلمون بها .

ومع ذلك فهذا ما حققته هذه الـ ٢٩٠٠ مليون جنيه .

جيوش من الفاتنات ، وصناعات متصلة بالفتنة اليقظى ، وقصور وشقق وسيارات ملونة .

هذا هو السؤال ..

ألا يستحق فعلا ، أن يؤلف فى الاجابة عليه كتاب .. ؟!

محتويات الكتاب

صفحة

تمهيـــد ٥

بـــداية ١١

العقدة الأولى

لبنان أو عقدة الذنب ١٧

العقدة الثانية

جون فوستر دالاس أو مجموعة عقـد فى رجل .. ٢٩

العقدة الثالثة

الولايات المتحـــدة الأمريكية أو مجموعة عقـــد فى سياسة دولة ! ٤٩

العقدة الرابعة

عزل مصر أو جمعيـــة ضـحايا دالاس فى الشرق الأوســط ٧٥

العقدة الخامسة

عقد الاضطهاد أو هرقل والعروش الهاشمية ١٠١

العقدة السادسة

عقدة أوديب أو بريطانيا التى كانت عظمى ١١٩

العقدة السابعة

عقدة الخوف أو دور روسيا فى هذه العقد ١٣٩

خاتمـــة

رحلة بين النجوم ١٦١

https://twitter.com/kotobmamno3a نصوير

والآن ؟
كيف يمكن أن تحل هذه العقد
كلها ؟

١ ـ لبنان
أو عقدة الذنب

٢ ـ جون فوستر دالاس
أو مجموعة عقد فى رجل

٣ ـ الولايات المتحدة
الامريكية
أو مجموعة عقد فى سياسة
دولة !

٤ ـ عزل مصر
أو جمعية ضحايا دالاس
فى الشرق الأوسط

٥ ـ عقد الاضطهاد
أو هرقل والعروش الهاشمية

٦ ـ عقدة أوديب
أو بريطانيا التى كانت
عظمى !

٧ ـ عقدة الخوف
أو دور روسيا فى هذه العقد

وعقدة المال الذى لا أول له
ولا آخر .

دخل البترول الذى
لا يصرف على تعمير الصحراء
ولكن تمول به المؤامرات
ومن غير حساب !

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر